البناء المادي والصوري لاستقرار الإسلام في الأندلس

ميغِل كـروث هِرْنـانْدِث

ترجمة : فخري الوصيف

١. دخول الإسلام الأندلس

لا يشكل دخول الإسلام الأندلس أي مفاجأة إذا ما عرف تكوين وبناء العالم الإسلامي ؛ وربما كان مفاجئاً للطبقة الحاكمة القوطية أو لجزء منها ، ولعله ليس كذلك بقدر كبير بالنسبة لغالبية الشعب الهسبوروماني الأصل ، وهو أيضا كان حادثا مباغتا للمؤرخين الضائعين في موضوع "ضياع اسبانيا" الأسطوري ؛ لذا ينبغي الفصل بين الأسباب والدوافع والظروف . فالأسباب اثنان ، وهما الدفع الذي أعطاه الدين الإسلامي للعرب ورغبة البدو القدامى في الثراء . والسبب الأول واضح للجميع ؛ والثاني دائما مرفوض من قِبل المؤلفين العرب والمسلمين والمادحين المتعاقبين ، ولكن من يؤكده ليس أقل من ابن رشد إذ يقول :

"حينما تظهر الشعوب المحاربة على النحو الذي قد حددناه من قبل وتبلغ وضعا حربيا قويا ، فإنها تحوز أيضا طبيعة مناسبة لذلك ، إذ أن موقفها أمام الثروة والازدهار يكون كمثل الذئب أمام القطيع السمين ؛ لذلك يمكن لشعب من هذه الشعوب أن يحارب مَنْ هو ضعفه أو ثلاثة أمثاله في العدد . هذا بمقدوركم أن تلاحظوه في الجماعات التي تنشأ في الصحراء حيث تكون متناحرة وفقيرة ولكنها سرعان ما تقهر مجتمعات مسالمة ومزدهرة ، مثلما حدث مع أمير العرب في مواجهة ملك الفرس" . هذا النص ، وهو سابق على أقوال ابن خلدون عن البدو ، يقدم لنا رؤية مناهضة للعرب وليست إسلامية عن فتح بلاد فارس المتحقق خلال حكم االخليفة الراشدي الثاني عمر (١٤-٢١=٦٣٦-٦٤٢) ، في مقابل الأطروحات الرسمية القائلة بأن الفتح هو نتيجة للجهاد ضد الكافر ولقوة "العصبية" الهائلة ولفاعلية العرب الحربية . وكل هذا كان حقيقيا ، رغم أنه يجوز الجمع بينه وبين الرغبة في السلب ؛ ولكن ثمة مؤرخين عديدين اعتادوا على تناسي الأقوال النمطية الجاهلية التي سبّبت الأسطورة الذهبية للقيم العربية والإسلامية .

والأسباب لها علاقة كبيرة بوضع القوات العربية في الجزء الغربي من شمال إفريقيا . فكما هو معروف ، وباستثناء المنطقة التي سيطلق عليها العرب إفريقيّة (إفريقيا البروقنصلية الرومية) التي لم تكن تتعدَّى في أصولها حدود قرطاجة القديمة ، فإن الاستيطان في شمال إفريقيا

استند أساسا على سلسلة من المراكز الساحلية الملتحمة معا بواسطة الطرق الرومانية الفعّالة . ولاحقاً ، انضمت إلى البؤرة الأولية لإفريقية البروقنصلية مملكتا نوميديا وموريتانيا من جانب ، وبرقة وطرابلس من جانب آخر. وفيما بين القرنين الثالث والرابع الميلاديين كانت حركة القبائل مستمرة ، وسيصل صداها شبه الأسطوري إلى زمن ابن خلدون . كما أضعف الغزو الوندالي مراكز الحياة المدنية والإدارية والتجارية والحرفية . وبالكاد استطاع الحكم البيزنطي المستعاد في شمال أفريقيا أن يحتفظ بالشبكة الحضرية الساحلية بالتحالف مع قبائل أهل البلاد الأصليين . وكان في هذه اللحظة حينما شن الإسلام هجومه .

والاتساع السريع والمدوي للإسلام حدث حقيقي ، ولكن يجب أن يكون مجرّدًا من الصبغة الأسطورية التي حولت السرعة إلى دوار ، والفتح إلى قصيدة ملحمية مجيدة للغاية . ففي عام ١٨ (=٦٣٩) عبر القائد عمرو بن العاص شبه جزيرة سيناء وتوغل في أرض مصر ؛ ورد البيزنطيون بسرعة وفعاليّة حقيقية واستعادوا الإسكندرية ، ولكن العرب ثبتوا في حصن بابليون ، الفسطاط فيما بعد ، في رأس زاوية الدلتا المصرية . ومن المشكوك فيه بدرجة كبيرة أن عمرا احتل برقة عام ٢١ (=٦٤٢) ، ولكن الحقيقة أن العرب شنوا حملات سريعة ومتكررة في اتجاه الغرب . ولا يجب أن يثير الدهشة المدُّ والجزر لتلك الحملات ، لأن تجربة الحملات السريعة للجنرال الألماني روميل على مصر، وتلك التي شنها البريطاني مونتجمري على تونس في حرب ١٩٣٩-١٩٤٥ ، تتيح عمل تصور للحرب في الصحراء . فكما كان يتوقف تقدُّم القوات المتحاربة في سنوات ١٩٤٠-١٩٤٣ حينما كانت لا تصل الإمدادات العسكرية أو كان ينفد الوقود اللازم للمركبات الحربية ، كان يحدث مثل ذلك في القرنين الأول والثاني الهجريين (= السابع والثامن الميلاديين) حينما كانت تسقط الجمال والخيول مُنهكة من التعب . وكان احتلال نقطة ارتكاز أساسية أو فقدانها يجبر على الانسحاب ، على الأقل مؤقتا ، مع النتائج المترتبة على ذلك . ولنتذكر بهذا الصدد النتائج الاستراتيجية الخطيرة لتغير القوة المسيطرة على قاعدة طبرق على مسار الحملات العسكرية في سنوات ١٩٤٠-١٩٤٢.

وفي إطار المعنى المشار إليه يجب فهم حملة عمرو المفترضة على ليبيا عام ٢١ (=٦٤٢) ، وحملة عقبة بن نافع على تونس عام ٥٠ (=٦٧٠) . ويجوز إذن القبول بأنه بعد عام ٦٠ (=٦٧٩-٦٨٠)ُأنجزت الحملة الأولى إلى الأراضي التابعة اليوم للجزائر والمغرب ، حتى التمكن من تأمل الطرف الجنوبي لهسبانيا المجاورة . وحينما مات عقبة في كمين ، أعاد موسى بن نصير الحملة واحتلّ طنجة . ولمّا رجع إلى المعسكر العام ، المقام في القيروان ، كان قد ترك مهمة التوغل في المغرب في يد طارق بن زياد . الأمر إذن عبارة عن حملات عسكرية ذات

سيطرة محدودة ومؤقتة ، ولكنها فيما بعد ستكون فعّالة . وفي غضون ذلك ، حدثت ظاهرتان على قدر كبير من الأهمية ، وهما المقاومة العنيدة للبربر المتنصرين ، ثم أسلمتهم اللاحقة . وهكذا فبينما استغرق احتلال المنطقة الساحلية من الإسكندرية إلى قابس حوالي عشر سنوات ومنطقة إفريقية خمس عشرة سنة تقريبا ، استلزم فتح المناطق الساحلية الحالية للجزائر والمغرب ، مع توغل محدود في الداخل لم يتجاوز أبدا جنوب فاس ، استلزم نصف قرن . إذ أن مقاومة البربر المتنصرين كانت في غاية الشدة ؛ وقلة الأخبار عن نهاية تلك المقاومة إشارة على أن خضوع البربر كان على الراجح صلحاً ، وبعد أسلمة سطحية تقريبا . ومن ثم كان وضع العرب في المغرب مزعزعاً ؛ وكان البربر يشكلون غالبية الجيش ، ومن المحتمل أيضا أنه كان أفضل جزء من ذلك الجيش . ولم تكن قد توقفت حركات الهجرة التي بدأتها منذ قرون الجماعات البربرية من هوارة ولواتة ؛ وكانت بالكاد حركات هجرة مغراوة ومكناسة قد سبقت بسنوات قليلة دخول الجيوش العربية المغرب .

وإذا كان دفع الحملات الحربية ونجاحها في آخر المطاف قد شكّل الدافع الأول لوثوب المضيق ، فإن البحث عن مشغولية للجيش البربري أصبح الدافع الثاني . فالفراغ من النشاط الحربي لجيش معتاد على الحرب كان دائما خطرا ؛ وتسريحه كان يبدو مستحيلا ، إذ أنه يؤدي فحسب إلى إنعاش وتنظيم الاضطراب القبلي المحتمل ؛ وكان يجب أن يكون الحل هو الحل التقليدي ، أي استمرار الحملة الحربية . فمنذ هانيبال والإسكندر إلى نابليون وهتلر كانت المعضلة دائما نفسها : إما أن يسير أو أن يموت . كذا ما تبرهن عليه الثورة البربرية التي اشتعلت بعد توقف التقدم في اتجاه قلب المغرب ، أولا في المغرب ثم في الأندلس . وهكذا إذن التحمت الدوافع القريبة بالأسباب البعيدة لمحاولة الوثوب على هسبانيا .

لكن في التاريخ تحتاج الأسباب والدوافع لتعمل عملها إلى الفرصة السانحة ؛ ولذلك في هذه الحالة اتحدت الأسباب مع الظروف . وأولها ، ويجب ألا ننساه ، بُعْد مركز الحكم ، دمشق ، وقواعد الانطلاق ؛ فلنتذكر أنه حتى في حرب ١٩٣٩-١٩٤٥ اتخذ بعض الجنرالات قرارات شخصية في مثل هذه الظروف بالرغم من سرعة الاتصالات المعاصرة ؛ ونفس الشيء عمله الجنرال ماك آرثر في حرب كوريا ، ومثلما أُستدعي هذا الجنرال إلى مركز الحكم في واشنطون استدعي موسى وطارق إلى بلاط دمشق . وفي عام ١٩٨٨ اتخذ ضابطان أمريكيان من الأسطول المنتشر في الخليج الفارسي قرارين متعارضين : أحدهما انتظر عدة دقائق ، والآخر لم يتمهل أكثر من لحظة ، ولم تصدِّق واشنطن على أي من القرارين ، وأسفت أولا على خسائرها في الأرواح وبعد ذلك على القتلى من المدنيين الأبرياء . والمقارنة ليست بعيدة عن الصحة ، لأنه

رغم نظرية سرعة الضوء في الاتصالات الحديثة ، فلا يعمل عقل الإنسان أو يده التي تأخذ الهاتف على هذا النحو ، وقائد سفينة حربية بعيدًا عن قواعده يكون وحيدا تماما مثل جيش من العصور الوسطى في الصحراء .

والظرف الثاني هو تحريض آل غيطشة المزعوم على الفتح ، وهو أمر مطروق جدا بسبب تأسطر موضوع "ضياع اسبانيا" . وبدلاً من أن يُدعِّم تزعزع وضع الجيش الإسلامي في العدوة المغربية الحذر المُوصى به من دمشق ، فإنه قوّى الحاجة للعمل العسكري . وفي ذلك الوقت كان البيزنطيون قد فقدوا قرطاجة ؛ لذلك فإنه يبدو واهنا الظن بأنهم كانوا لا يزالون يسيطرون على نقطة ارتكاز في سبتة . ومن الممكن أن الكونت المتأسطر يُليان (خوليان Julián) كان "قومس comes" أو حاكم منطقة المضيق ، وفي مثل هذه الحالة تمكن من مساعدة الجيش الإسلامي على العبور، وقدّم العون بشكل أكثر سهولة إلى الغارة المتأسطرة التي قام بها الضابط البربري المزعوم طريف بن مَلّوك (رمضان عام ٩١ = يوليو ٧١٠) مما قدّمه إلى عملية نزول طارق بن زياد (رجب أو شعبان عام ٩٢ = أبريل أو مايو ٧١١) . وعبر المضيق ثمانية آلاف رجل أولاً و بعد ذلك أكثر من ثلاثة آلاف ، ولكن ألم يكن يقتضي هذا العدد أسطولا من أكثر من مائتي سفينة أو عشرات الرحلات ذهابا وإيابا ؟ وفي هذا كثير من النزوع الأسطوري حسب الذوق العربي الجاهلي ومن التبرير المسيحي الشارح لـ "ضياع اسبانيا" . هل حث آل غيطشة موسى بن نصير لكي يتدخل في الحرب المفترضة وشبه السرية ضد لذريق (رودريغو Rodrigo) ؟ ربما كان ذلك ممكنا ، ولكن بالتأكيد لن نعرف ذلك أبداً ، لأن أيضا كتاب الحوليات المسيحية المدافعين عن الطرف المُقاوم أضفوا طابعا أسطوريا على الموضوع . وكذلك من المؤكد أن تعاون أو سلبية المسؤولين الكنسيين في باطقة Bética (جنوب إسبانيا) ، الممثلين في الأسقف الخائن أبّة (أوباس Oppas) ، وخيانة آل غيطشة المتأسطرة ، والمعاهدات مع القمامسة ، مثل معاهدة تدمير (تيودوميرو Teodomiro) ، كل هذا تسبب في هذه الرواية الراسخة . وهنا كذلك لم يأنف الأخباريون العرب من الأخذ بالأسطورة ؛ من جهة لأنها كانت تبدو شارحة ، ومن جهة أخرى لأنهم نهلوا ، أكثر مما هو حتى وقت قليل كان يُعتَقَد ، من المصادر المسيحية . بيد أن الظرف الثاني الحقيقي كان سهولة الحملة أو الحملات وثمراتها التقليدية من أطعمة ممتازة ، وأموال ، ونساء جميلات (وهو ما يبينه أيضا الوضع العربي المتزعزع في المغرب ، فكذلك كانت البربريات جميلات حينما وجدن) .

والظرف الثالث كان بُعْدُ الجيش الهسبوقوطي ونقص المعلومات الملائمة . فمن رمضان ٩١ إلى شعبان ٩٢ (= يوليو ٧١٠ إلى إبريل أو مايو ٧١١) توجدُ قرابة عشرة شهور ؛ وبعد أن

جهل لذريق خبر غارة طريف أو لم يُقدِّره حق قدره ، كان يجب على الجيش التحرك في مايو ويونيو عام ٧١١ . فإذا جرت عملية استطلاع عسكري وفي نحو العام لا يتم الحصول على رد إيجابي بتحرك القوات العسكرية ، تعززت إرادة المهاجم . وأخيراً ، للانتقال من عملية ذات نطاق محدود إلى عمومية الانتشار العسكري ، يكون حاسما الظرف الرابع وهو النصر السهل في معركة المواجهة الأمامية ونتائجها الاستراتيجية . ومن دواعي الأسف أن هذا الموضوع لا يزال حاليا تحت المراجعة .

والتفسير التقليدي بشأن نزول طارق بن زياد إلى الغرب من جبل كلبيه Calpe ، المعروف الآن بـ جبل طارق Gibraltar ووصول موسى بن نصير اللاحق يطرح ثلاث دوائر من الصعوبات ، وهي : عدم ذكر الميناءين المهمين في الشرق والجنوب ، قرطاجنة Cartagena وقادش Cádiz ؛ وأن أول وثيقة تاريخية صحيحة هي معاهدة الصلح بين عبد العزيز بن موسى بن نصير والقومس تدمير، سيد الأراضي الجنوبية الشرقية ؛ والطابع المشرقي للروايات الخاصبة بفتح الأندلس . ونظرية الأستاذ بالبيه Vallvé بشأن نزول سلمي في قرطاجنة نظرية جائزة بقدر ما هي غير ملائمة ، وفي هذه الحالة تكون قوات لذريق قد هزمت في أراضي محافظة مرسية Murcia الحالية . ومن الممكن أن الكونت يوليان كان حاكما على كل منطقة المضيق وكان قد سلّم للمسلمين ، ليس فقط سبتة ، بل أيضا قادش ؛ ولكن الطابع الأسطوري للروايات احتفظ برواية حملتي طارق وموسى فحسب ، مما يجعل سردهما أمرًا لا مفر منه .

وطبقا لهذه الرواية التقليدية أقام طارق بن زياد قاعدة ساحلية إلى الغرب من جبل كالبيه محددة برأس جسر في الموضع الذي سيسمى فيما بعد الجزيرة الخضراء ، حاليا Algeciras ، لكي يستخدمه كنقطة ارتكاز لاستقبال تعزيزات أو للعودة . وبتحركة إلى طريفة Tarifa أو أبعد منها قليلا ، تغلب على المقاومة المحلية ؛ وكان يعتمد على جيش أكثر قليلا من سبعة آلاف رجل كلهم تقريبا من البربر. وحينما علم بأن الجيش الهسبوقوطي قادما للقائه طلب تعزيزات من موسى بن نصير، فأرسل له خمسة آلاف رجل ، كانوا أيضا بربرا في غالبيتهم .

ووقعت المعركة في ٢٨ رمضان من عام ٩٢ (=١٩ يوليو ٧١١) وانتهت بهزيمة كاملة للقوات الهسبوقوطية . ولم يشك طارق لحظة واحدة في التوقف ، إذ انطلق ليستثمر النصر، فاحتل استجة Écija ، حيث استقبله بترحاب جمع من المستائين ؛ وقسّم جيشه ، فأرسل المولى مغيث الرومي لاحتلال قرطبة (في ذي الحجة ٩٣ = أكتوبر ٧١١) ، وواصل هو التقدم مع الجزء الأعظم من قواته حتى طليطلة Toledo . وبعد غزو عاصمة المملكة الهسبوقوطية ، اتجه على وجه السرعة إلى الشمال ، وعن طريق وادي الحجارة Guadalajara (ولعله كان

مرورا بـ بويطراقو Buitrago) وصل إلى قلونيّة Clunia ، وهاجم أماية Amaya وتابع مسيره إلى ليون León وأستورقة Astorga ، حيث انحرف ليعود إلى طليطلة ؛ وفي بحر عام كان قد اخترق نصف شبه الجزيرة . وفي رمضان عام ٩٣ (= يونيو- يوليو ٧١٢) عبر موسى المضيق مع ثمانية عشر ألف رجل ، كان جميعهم تقريبا عربا ، ومن بينهم كثيرون كانوا يتفاخرون بأصولهم العريقة القيسية واليمنية . وسار موسى من إشبيلية ، فاحتل بعد مقاومة عنيفة ماردة Mérida (شوال عام ٩٤ = يونيو- يوليو ٧١٣) ، مواصلا على الأغلب طريقا مشابهة للطريق التي سلكها جيش إفريقيا الإسباني في حملة أغسطس- سبتمبر عام ١٩٣٦، ووصل إلى طليطلة . بينما سار ولده عبد العزيز من إشبيلية ، مرورا بمالقة وغرناطة ، حتى منطقة مرسية ، حيث وقّع فيما بعد معاهدة الصلح مع القومس تدمير. ثم قامت قوات موسى وطارق مجتمعة بحملة للسيطرة على وادي الإبرُه والمنطقة الشمالية ؛ فحينما خرجت من طليطلة احتلت شِغونة (سيغوينثا Sigüenza) وسرقسطة Zaragoza ووشقة Huesca ، واستدارت ناحية الغرب ، سالكة الطريق من سرقسطة إلى أستورقة ، فتوغلت في جليقية Galicia ، محتلة لكْ Lugo ، ووصلت بعض طلائع هذه القوات حتى خيخون Gijón . ومن جهة عبد العزيز بن موسى ، فحينما عاد أيضا إلى الغرب ، احتل أكشونبة Ocsonoba وباجة Beja ؛ وفي الشمال تم الاستيلاء على بريبيسكا Briviesca وبنبلونة Pamplona وطركونة Tarragona . واستغرقت العملية الإستراتيجية ثلاث سنوات فقط . ثم دعَّمت حملات الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي في عام ٩٩ (=٧١٨) السيطرة على المنطقة القطلانية شمال يوبرغات Llobergat ؛ ووصلت حملات السمح بن مالك الخولاني في عام ١٠٠ (=٧٢٠) حتى أربونة Narbona ؛ وتمثل السيطرة المحتملة على غالة القديمة حلقة إستراتيجية ثانية ستستمر حتى هزيمة وموت عبد الرحمن الغافقي في معركة بواتييه Poitiers (رمضان من عام ١١٤ = أكتوبر ٧٣٢) . وفي الحقيقة ، وقع نِزال بلاط الشهداء في الطريق الذي يربط شاتلرو Chatellerault ببواتييه ، في المكان المعروف فيما بعد بـ موسيه لا باتاي Moussais-la-Bataille .

وثمة نص متأخر جدا يُظهر وصفا كاملا ومفصلا ومتماسكا للغاية لأحداث الفتح ، ومعرفة بالغة بطرق شبه الجزيرة الإيبيرية . وبهذا الخصوص يبدو أن رحيل عبد العزيز بن موسى إلى منطقة تدمير ورجوعه إلى إشبيلية يبدو تقريبا تبريرا لمعاهدة الصلح مع القومس النصراني تدمير. كما أن صعود موسى بن نصير من طريق لا بلاتا la Plata ثم اقترابه من طليطلة عن طريق وادي التاجُه Tajo ليس له معنى كبير ، إذ كان طارق يوجد حينئذ في

عاصمة المملكة الهسبوقوطية ، إلا إذا نظر له كإستراتيجي بالغ الحذر لم يُرد أن يترك في جنب التقدم الإسلامي مدينتي إشبيلية ومـاردة المهمتين . وبالمقابل ، لـو ذهـب جـيش إسلامي مـن قرطاجنة إلى طليطلة ، وهو يبدو أكثر قبولا من الآخر المنطلق من الجزيرة وقادش ، لتابع السير إلى إشبيلية وماردة . واختيار حل أو آخر ، بالاستغناء عن المصادر العربية ، يبدو صعبا ، و لا طائل منه بالنسبة لتوجُّه عملنا هذا ؛ وأيّاً ما كان الأمر بدأ الإسلام يستقر بالأندلس من أوائل القرن الثامن الميلادي .

٢. نتائج الفوز الإسلامي

ولكي نفهم الفوز الإسلامي في شبه جزيرة إيبريا يجب أن ننطلق من فِعل أولي ، وهو أنه لم توجد حملة من الحملات العسكرية الإسلامية السابقة في غاية الفعالية مثلما كانت حملة طارق ، ومن الممكن أن مثل هذه السرعة والفعالية قد أثرت على الأخباريين المشارقة حينما عَزوا انتصارات سريعة ومدوية إلى عمرو بن العاص وعقبة بن نافع ، اللذيْن لم يحرزا انتصارات على هذا النحو ، ولم يصلا في فتوحاتهم بعيدا جدا كما يُحكى . ويتيح لنا تواز ٍ معين من التواريخ مقارنة حملة طارق بن زياد المفترضة بحملة القائد فرانكو في عام ١٩٣٦. فطبقا للرواية التقليدية هزم طارق لذريقَ في يوليو عام ٧١١ ، لعله في يوم ١٩ ، وفي نوفمبر من نفس العام كان طارق موجودا في قلعة هنارس Alcalá de Henares ؛ وفرانكو، القائد الأعلى فيما بعد ، بدأ المسير إلى مدريد في أوائل أغسطس عام ١٩٣٦ ووصلها في يومي ٦ و٧ نوفمبر. ولكن في حين استطاع الأخير أن يستخدم طرقا أسفلتية وسككا حديدية ومركبات مدارة بالبنزين والفحم ، وأن يجد تعزيزات ، خاصة من جماعات من السكان كانت مستعدة للمساعدة على مدى الجزء الأعظم من طريقه ، وعلى وجه الخصوص بعد الالتحام بالمنطقة الشمالية من اكسترمادورا Extremadura ، فإن الأول تجهَّز فقط بالطرق الرومانية والخيول والساخطين واليهود . انتصار سريع جدا وساحق ، ومستثمر على نحو رائع للغاية ، كان له وجهه الإيجابي ، ولكن كان له أيضا وجهه الآخر.

والفاتحون الذين كانوا أقل من ٤٠ ألفا ، ولعله لم يكن من بينهم ولا حتى ٢٠ ألفا من العرب (لم يكن قد وصل بعدُ شاميو بلج ولا الجماعات البربرية الباحثة عن الأرض) ، لم يكن عليهم فقط أن يحاربوا ويسيروا وينتصروا ، بل أيضا كان لابد أن يعيشوا . وأنجزوا حملات سيطرتهم العسكرية كجنود ؛ ولم يحضروا عربات لكن خيولا ؛ وجلبوا عتادا وليس نساء . واتخذوا هنا زوجات ؛ وبدأوا يتعايشون في علاقة جيدة مع الهسبورومانيين واليهود وحتى مع

بعض القوط ؛ وتقريبا وفقا للتقليد العربي والبربري وللأوامر القرآنية بشأن توزيع الغنائم بدأوا استقرارهم . وحاز العرب على نصيب الأسد وتركوا للبربر المناطق الجبلية في جنوب وشرق الأندلس وفي الثغر الأعلى ، تلك المناطق التي كانت ملائمة لهم ، وكل المنطقة الغربية للهضبة الشمالية شاملة جليقية ، وهو على ما يبدو أمر مشكوك فيه . وفي الحال ظهر الميل للقبلية . وبوجه عام ركز المؤرخون الغربيون ، المتأثرون بروايات الأخباريين العرب ، على المشاحنات بين العشائر القيسية واليمنية أكثر من تلك المنازعات الملازمة للقبائل البربرية . وعلاوة على النفوذ الشخصي الظاهر، فما كان يؤثر في الحقيقة هو عامل قوة العصبية الاجتماعية . وصلابة البيئة القبلية والعشائرية لا تنضب طالما اللحُمة الداخلية التكوينية للمجموعة هائلة . وتعدّ العصبية قاطعة حينما تفرض الرئيس أو تحارب العدو ، ولكن بعد النصر تعود الروح الفردية ، ولا أحد ، فيما عدا الموالي والمرتزقة ، يجد نفسه مضطرا إلى الطاعة والنظام . وقد قال زعيم بربري من قبيلة كتامة إذ ذاك شيئا مشابها لما قاله سادات سلمنقة Salamanca لما ردُّوا على الملك في القرن الثالث عشر الميلادي قائلين : "لا رأس لنا ولا رئيس ، وكلُّنا سادة على أنفسنا" ؛ وكان قول الزعيم البربري : "كل واحد منّا سيد نفسه" .

وكان كثيراً من ذلك في الثورة البربرية . وقد حدس موسى بن نصير قبل عام ٩١ (=٧١٠) بأن الثورة البربرية لا مفرّ منها ؛ بيد أن فتح الأندلس أخرّها . ولكن في عام ١٢٢ (=٧٤٠) رفع البربر بأجمعهم تقريباً ، وبينهم القبائل القوية : برغواطة ومطغرة ومكناسة ، رفعوا السلاح في المغرب الأقصى ؛ وعينوا ميسرة رئيسا ، واستولوا على طنجة ، وبالرغم من التعزيزات الأندلسية ، فإنهم سحقوا العرب في غزوة الأشراف . ودوما ما يُذكر أن البربر في هذا الحادث حاربوا متعصبين بسبب حداثة تحولهم إلى مذهب الخوارج ؛ ولكن ما لا يقال كثيرا أن هذا التحول – بالنظر إلى التشدد الأخلاقي للمذهب الخارجي وميله للمساواة ورفضه لقصر حق الخلافة على المنحدرين من قبيلة قريش – كان سهل القبول لملائمته لموقف القبائل البربرية المعادي للتراتبية ولتوافقه مع السمة الفردية لهذه القبائل ذات العصبية القوية . وأقلقت خطورة الثورة وتوجهها الخوارجي الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ، فحشد في دمشق ثلاثين ألف مقاتل من الأقاليم الشامية أرسلوا تحت قيادة كلثوم بن عياض على نحو عاجل إلى المغرب . وهزم البربر جيش الأشراف الشاميين المتشامخين ؛ ولذلك كان من الضروري أن يصل والي مصر شخصيا إلى المغرب مع حملة قوية وأن يسحق الثورة البربرية . وناشدت فلول جيش كلثوم بقيادة بلج بن بشر القشيري عدة مرات أمير الأندلس عبد الملك بن قطن أن يرسل إليهم مؤنا ومراكب ، ولكن الأمير الفهري تصامّ عن النداء ، ومن المحتمل أن ذلك كان عن سرور

خفيّ . بيد أن هذا السرور لم يستغرق طويلاً ، إذ أن بربر الأندلس أتوْا على تقليد بني جلدتهم المغاربة وأعلنوا الثورة .

وهنا أيضا ينبغي أن نميز بين الظرف والدافع والسبب . كان الظرف دون أي شك عدوى الثورة المغربية ؛ والدافع المَحْل وما نتج عنه من مجاعة سنة ١٢٢(=٧٤٠)[1] ؛ ولكن السبب الحقيقي كان توزيع مناطق الاستقرار بالأندلس بعد الفتح . وهكذا ، وبانتظامهم في ثلاث تجمعات عسكرية هدّد البربر في وقت واحد طليطلة وقرطبة وشذونة . ولم يكن ثمة حل سوى إرسال المؤن والمراكب لبلج ورجاله مع الوعد السهل بتيسير عودتهم بعد تقديم المساعدة المطلوبة . ولما وصل بلج ورجاله الشاميون الحانقون إلى الأندلس ، قضوا على التجمع الأول في لقاء سريع ، وهزموا الثاني بصعوبة كبيرة ، وسحقوا الثالث بالقرب من وادي سليط Guazalete ، أحد روافد نهر التاجُه من جهة ضفته اليسرى .

وكانت النتائج كبيرة ؛ فالشاميون الذين من المفترض أنهم كانوا بسبتة يائسين وجائعين أخذوا ثأر إخوانهم في العِرق كاملا من محاصِريهم ؛ ولكن عندما أراد عبد الملك بن قطن إخراج مُنْجِديه حسبما اُتفق عليه ، سيطرت قوات بلج على قرطبة وعزلت أمير الأندلس واستبدلت به بلجا في شوال – ذي القعدة من عام ١٢٣(= سبتمبر ٧٤١) . أما بربر الشمال الغربي ، فلم يقدروا على العودة إلى بلادهم ، إذ أن الجثث لا تمشي ؛ وكان هذا منطلق الخلاء "الإداري" لمنطقة الدويرُه . وأدى طموح الجند الشامي إلى نشوب الحرب الأهلية مصحوبة بالتدخل الأجنبي (حاكم أربونة Narbona)[2] ، ولم تنته الحرب حتى أحرزوا أحسن المنازل . فأنزل جند دمشق في غرناطة ، وجند مصر في الغرب ومرسية ، وجند حمص بين إشبيلية ولبلة Niebla ، وجند الأردن في ملقا وأرشذونة Archidona ، وجند فلسطين في مدينة شذونة ، وجند قنسرين في جيان Jaén . وكذلك في هذه الحالة يكون التفسير مقنعا جدا ومفصلا ومناصرا للشامية ، الأمر الذي يحمل على الشك بأنه كان مرتبا لشرح نصيب الأسد الذي أخذه الشاميون ، وهو كذلك مقنع ومفصل بعد ذلك بخصوص المتعاونين اللازمين جدا لشرح سيطرة المرواني عبد الرحمن بن معاوية على الأندلس .

وجعلت الأحداثُ السابقة مستحيلة محاولات تأسيس مَلَكِيّة تعطي قواماً للوضع المعقد لأساس الفترة الإسلامية الأندلسية الطويلة . وحكاية تتويج عبد العزيز بن موسى لنفسه في خلوته

---

[1] ذكر المؤلف من قبل أن هذه المجاعة وقعت في عام ١٢٣ (=٧٤٠-٧٤١) ، ولكن – من جهة أخرى – لم يأت ذكر المجاعة المذكورة في الأصول العربية ، كما لم ترد في المراجع الحديثة المعتمدة (م*) .

[2] يشير المؤلف إلى عبد الرحمن بن علقمة ، وكان قائد حامية أربونة وحاكمها ، تابعا لوالي الأندلس ، وبالتالي لا محل هنا للحديث عن تدخل "أجنبي" (م*) .

بإيعاز من زوجته أيلة Egilona ، أرملة لذريق ، هي أسطورة محضة . وكان الصميل ، رجل الحقبة القوي من ١٢٧ إلى ١٣٨ (=٧٤٥-٧٥٥) ، هو منْ تجاسر على محاولة تأسيس الملكية ؛ لكن فيما عدا قوته ، لم يكن يحوز الشروط التي تجعل تطلعه ممكنا ليترأس أسرة حاكمة مستقلة . وكانت الظروف الاجتماعية حينئذ مواتية ، بعد أن بلغت منازل البلديين والشاميين تمام نموها ، وبعد أسلمة جزء مهم من السكان الهسبانيين ، وحدوث الزيجات المختلطة ، وتحقيق إصلاح اقتصادي اجتماعي متوازن . وكانت الصيغة الواعدة بإمكانيات كبيرة لإنشاء أسرة حاكمة تتمثل فيمن يحمل نسبة "الفهري" ، من فرع الحارث ، من قبيلة قريش ، الذي كان يعتمد (سواء كان على أساس حقيقي أو لا) على صيت عقبة بن نافع ، باعتباره فاتح المغرب . وفي عام ١٢٩ (= ٧٤٧) كانت الشروط الملائمة تتفق مع شخص يوسف بن عبد الرحمن بن أبي عبيدة بن عقبة الفهري ، الذي بشكل ما قد اختير لأنه كان من قبيلة قريش . لكن يوسف كان حينئذ في السابعة والخمسين من عمره ، وكان ضعيف الشخصية ورعا ؛ لهذا كان يحتاج لاستخدام صيت اسمه وأصله ، ولدعم الفهريين المعنوي في بلاد المغرب ولمواليهم العديدين ، ولرجل شديد قاس يستند على عصبية قوية ، وهو الصميل . حقيقة طبقا للمؤرخين العرب أن يوسف وضع أسرته ومواليه في المواقع المهمة ، فإن من الجائز ، ويمكن أن يكون ذلك صحيحا ، أن الصميل كان يوصيه بالنقل الوراثي لحكمه بقوله له ("هي [الأندلس] والله لك ولولدك إلى الدجال ، منْ هذا ينازعك ؟") . بيد أن يوسف الفهري لم يكن يحوز أية علامة من علامات السلطة والقوة التي ، حسب ابن خلدون ، تميز المؤسس لأسرة حاكمة . وهي كانت محاولة حقيقية ، لكن من جانب الصميل وليس من جهة يوسف ؛ فلو نجح المشروع لما كانت سلطة الأسرة الحاكمة للفهري ، ولكن للصميل ؛ مثلما فعل المنصور ابن أبي عامر بعد ذلك مع الخليفة هشام المؤيد ، منشئاً الأسرة الحاكمة العامرية وإن كانت قصيرة الأجل جدا . ومع ذلك ، فإن هذا الحدث يبين أن الظروف كانت ناضجة للنظام الملكي ، ولكن الثمرة سيقطفها عبد الرحمن بن معاوية .

٣. الحدود كنتيجة لشكل الفتح

تُعد الحدود كبعد حركي أمر قديم جدا كإنسان العصر الحجري الحديث . فكان سلفنا الأول مثل الكائنات الحية الأخرى ، حيوانا أرضيا ، فحينما نظم الإنسان العاقل الحالي نفسه قبليا احتاج إلى مجال حركي فاصل ، وعلى هذا الأمر تتفق كل الأبحاث الأنثروبولجية والأثرية . وبعد الثورة الزارعية التي سهلت الاستقرار اعتاد الرُحل الصغار (رعاة الشياة والماعز) على تعيين حدود المجال الإقليمي المرن ، أي الحدود . والحدود بالنسبة للرُحل الكبار لا معنى لها ،

لأن إقليمهم هو المجال الواسع لهجرتهم الدائمة . وأما بالنسبة للتجار الرحل (أصحاب القوافل) ، فما له معنى لديهم هو الطريق ، أي المسار المعتاد للقافلة . واحتاج الاستقرار الذي يسرته الثورة الزراعية إلى التخوم المرنة .

ويكمن معنى الحدود في ألا تكون جدارا فاصلا ولكن في كونها منطقة اتصال . ولذلك ، يجوز أن تكون الحدود خلاء إداريا ولكن ليس خلاء بشريا . وبتعودنا على الخرائط التاريخية التي ترسم كل إمبراطورية أو مملكة بلون وتفصلها عن غيرها بخط سميك ، اعتقدنا أن الحدود كانت جامدة مثل سور الصين العظيم .

وتكفي معرفة سطحية بتاريخ الشرق الأدنى لإدراك أن الأمور كانت معقدة للغاية . فدوما كان نظام الحدود هو نفسه ، أي تقريبا غير متغير ، ويتمثل في أن يُعهد إلى مجموعات قبلية معينة التعاون شبه القسري بتأمين منطقة حدود مرنة . ويقوم النجاح السياسي الكبير على إحراز منطقة امتصاص موغلة العمق ؛ ويحدث الفشل الاجتماعي لما يتولى سكان هذه المنطقة دورهم التاريخي الخاصّ . ويُعدّ انتصار قورُش ، محرر الإنسان والشعوب والآلهة ، مثالا نمطيا لبُعده الهائل .

ولا يُعدّ النهر أو البحر حدودا مرنة ، فهما طريقان ، وفي حالة النهر هو مركز حياة ، في حين تمثل المناطق الحارة والغابات الكبيرة بشكل أفضل الخلاء الإداري والحدود الحركية . ولم يُنشئ البناء الاستيطاني الروماني الفعال نظام الحدود الحركية ولكنه اقتصر على تنظيمه بحكمة بفضل التنظيم التشريعي والإداري للشعب الروماني . واقتصرت جدّة الأجناد الرومانية على نجاح بنائها السياسي الإداري ، وأمامها عاني ورثة الإمبراطورية ، وهم الممالك الجرمانية ، القوط والفرنجة خصوصا ، والإمبراطورية البيزنطية . وما يهمنا الآن أن الفرثيين والساسانيين الفرس والإمبراطورية البيزنطية اقتصروا على وراثة التخوم الحركية للإمبراطورية الرومانية مستخدمين بشكل دائم تقريبا نظام الاعتداء غير المباشر عن طريق قوى تابعة حاجزة ؛ ويكفي تذكر دور القبائل العربية ، الغساسنة واللخميين ، في الصراع بين تينك الإمبراطوريتين . وما لفت هؤلاء وأولئك النظر إليه على نحو جهيد هو الاستنزاف الواسع لنظام الحرب الباردة ، وبوجه عام هو استنزاف يماثل دموية الحرب الساخنة أو أشد ، وإلى عدم تجذر السكان في أقاليم المدن المستعمرة ، وكانت هذه المدن دوما طـرَفية وقائمة إلى جانب البحر أو على ضفاف الأنهار الكبيرة . وسهولة توسع الإسلام كان له صلة كبيرة بهذه الظاهرة .

وفي حالة الأندلس ، لكانت الحدود فعالة لو أنها أقيمت شمال جبال البرتات ، بيد أن على العكس من نجاح الانتشار الأول الاستراتيجي المفترض في شبه جزيرة إيبريا ، فقد فشلت الجهود

المبذولة وراء جبال البرتات ، وكان لزاما أن تؤسس الحدود إلى الجنوب من سلسلة الجبال المذكورة . ونجهل على وجه الدقة تاريخ ذلك ، ولكنه يجوز الإشارة إلى أحد التواريخ وهو عام ١٣٣ (=٧٥١) حينما احتل بيبين Pipino المعروف بالقصير أربونة . وتوجد خمسة أسباب أساسية يمكن أن تشرح فشل المحاولة الإسلامية لتأسيس منطقة الثغور فيما وراء البرتات ابتداء من أربونة . أولا : وجود ممر دخول طبيعى كان يستخدمه الطريق الروماني . ثانيا : التواصل العريق ، الجغرافي والتاريخي والثقافي ، بل والديني ، بين بروفانس Provenza والولاية الطركونية . ثالثا : تبعية ولاية أربونة للمملكة الإسبانية القوطية . رابعا : التفوق البالغ للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بالنسبة إلى جبال البرتات الغربية والوسطى . خامسا : عدم وجود مجموعات قبلية ذات قوة تماسك قبلي كبيرة مثل الأشتوريَشيين والكنتبريين والبشكنس .

وحسب ابن حيان فقد قامت سرية عربية بربرية بأمر من طارق بن زياد بعد فتح برشلونة وأربونة بالمسير إلى غالة ووصلت حتى أبنيون Avignon ولوذون (ليون Lyon) . وحدثت الحملة بالفعل ، ولكن ليس في التاريخ المشار إليه ولكن من المحتمل بعد ذلك بعدة سنوات . إذ أن برشلونة وجرندة Gerona فتحتا في حملة الحر في عام ٩٩ (=٧١٨) ؛ وفتحت أربونة في حملة السمح عام ١٠٠ (=٧١٩) ، ثم هزم في طولوشة (تولوز Toulouse) في عام ١٠٢ (=٧٢١) . وفي عام ١٠٦ (=٧٢٥) وجه عنبسة بن سحيم الكلبي قواته إلى وداي رودَنة Ródano (نهر الرون) محتلا قرقشونة Carcasonne ونيمة Nimes ، ثم صعد مع نهري الرون والساءون Saona حتى بورغونيا Bourgogne ونهب أوتون Autum . ومن المحتمل أنه احتفظ بالمناطق التي تحمي أربونة فحسب ، فمقاومة الدوق أودو Eudes الشديدة في أقطانية Aquitaine (أكويتين) وضعت في خطر الجناح الأيسر من الانتشار العسكري المتحقق باتجاه نهر الرون ؛ ومن الجائز أن هذا هو السبب في القيام بالحملة الوحيدة خلال البرتات الغربية ، أي حملة عبد الرحمن الغافقي . فقد حشد هذا الأمير قواته في بنبلونة في أوائل صيف ١١٤ (=٧٣٢) ، واخترق البرتات عن طريق ممر رُنشِفالة Roncesvalles ، وهزم أودو بجانب نهر دوردون Dordogne ، ثم احتل ونهب بُرْذيل أو بُردال (بوردو Bordeaux) .

وسار المسلمون ، بعد أن نهبوا بعض الكنائس والأديرة ، نحو تور مدفوعين بشهرة كنوز سان مارتان . لكن قارلُه (شارل مارتل Carlos Martel) ، الذي كان قد حذره دوق أودو من الخطر ، توجه إلى تور فوصلها قبل المسلمين ، وفي أكتوبر من ذلك العام قابل عبد الرحمن الغافقي على بعد عشرين كيلومترا من بواتييه ، من المحتمل في موسيه لا باتاي ،

وهزمـه ومـات الأميـر نفسـه فـي المعركـة . واسـتدارت فلـول الجـيش ناحيـة الجنـوب الشـرقي واعتصمت بأربونة . وبعد عامين ، في ١١٦ (=٧٣٤) قام يوسف بن عبد الرحمن بحملة أخرى حتى نهر الرون ، فاستولى على آرل Arles وسان ريمي دي بروفانس Saint Remy-de-Provence وأبنيون ؛ واستمر احتلال هذه المواضع حوالي أربع سنوات . وفي عام ١١٩ (=٧٣٧) استعاد شارل مارتل أبنيون ، وتوغل في الولاية الأربونية ، وحاصر أربونة وهزم جيش عقبة بن الحجاج ، ولكن أربونة ظلت صامدة حتى احتلها بيبين القصير نحو عام ١٣٣ (=٧٥١) ، واستعيدت بقية جهات ولاية أربونة بأعلى البرتات فيما بين العام المذكور وعام ١٤١(=٧٥٩) .

وقـد أدت حمـلات أعـوام ٩٩ (=٧١٨) و١٠٠ (=٧١٩) و١٠٦ (=٧٢٥) و١١٤ (=٧٣٢) و١١٦ (=٧٣٤) إلى رجحان منطقة الحدود الشمالية الشرقية عسكريا وتركيز الجهود الحربية عليها ، ومن ثم إلى غفلة استراتيجية دعمت نواة مملكة أشتوريَش- كنتبرية . كما استلزم تجريد هذه الحملات المتكررة تقوية خط الطرق الرومانية التي عليها تأسس الرصيف الإسلامي . فمن أجل تدعيم هذا المحور الاستراتيجي ، قبل تلك الفترة أو بعد ، أنشئت أو حُصّنت مواقع ومدن معينة ؛ وهي من المحتمل : قلعة رباح Calatrava ، ومجريط (مدريد) ، وطلمنكة Talamanca، وبويطراقو، ووادي الحجارة ، وسيغوينثا ، ومدينة سالم Medinaceli ، وألماثان Almazán ، وقلعة أيوب Calatayud . وحدث الشيء نفسه في المحاور الثانوية : بربشتر Barbastro ، وطرطوشة Tortosa ، وتطيلة Tudela ، وقلهرة Calahorra ، وغيرها ، من جهة ؛ و من جهة أخرى ، ماردة ، وبطليوس ، وقورية Coria ، وغيرها . إذ كان وادي الإبرُه محورا جوهريا . لذلك كان على حدود الثغر الأعلى أن تقترب من نفس مخارج وديان البرتات . وبالعكس ، كان الثغر الأدنى لاحقا في نشأته ؛ فلا توجد قط معلومة عنه سابقة على ثورة البربر وهزيمة هؤلاء الأخيرين ؛ ونفتقر إلى أخبار عن عمليات الاستقرار اللاحقة في وادي دويرُه . ومردّ نشأة الثغر الأوسط أو المركزي يرجع إلى كونه المعاون الضروري للرصيف الاستراتيجي .

٤. تأسيس الدولة الأموية

أ) *البناء الاجتماعي الأوّلي للأندلس*

تكون البناء الاجتماعي الأول من خمس مجموعات بشرية ستدرس في موضعها ؛

المجموعة الأولى : العرب ، وهم أقلية ولكن مُلاك وسادة بموجب حق الفتح . والثانية : البربر ، وهم عديدون ، ومُلاك بموجب السبب السابق ، ولكنهم سادة بدرجة أقل حسب التقدير العربي . والثالثة : المولدون ، وهم كثرة بالغة ، نتجوا من اعتناق الإسلام . والرابعة : المستعربون ، وهم أيضا كثرة بالغة ولكن سيتراجع عددهم بسرعة ، ولهم وضعية اجتماعية خاصة بموجب وضعهم كأهل ذمة . والخامسة : اليهود ، وهم قليلوا العدد مع تماسك اجتماعي كبير ، ووضعية اجتماعية خاصة بموجب نفس وضع المستعربين . وفي حين كان اليهود والمستعربون والمولدون يتشكلون في نسيج اجتماعي أسري بشكل مباشر : كان العرب والبربر يتشكلون في بناء أكثر تعقيدا : قبلي وعشائري وأسري . ولكن تشير المصطلحات هذه إلى حقائق أكثر تحديدا ، ولا تتشابه بشكل كبير مع التحديدات العامة للمصطلح العرقي لـ قبيلة وعشيرة ؛ ولكنها أكثر شبها فيما يتعلق بالهيكل الاجتماعي بالعائلة الكبيرة العصابية .

إذ أن القبيلة كبنية بشرية مستقلة ومُكتفية بذاتها لم توجد أبدا في الأندلس . وبالرغم من جهود بعض المؤرخين للإشارة إلى بعض الحالات ، فالنتيجة كانت دائما متواضعة ، وذلك لسبب بسيط ، وهو أنه لم توجد أي قبيلة كاملة ، أو مجموعة كاملة مقتلعة من قبيلة حينما غدت تلك كبيرة للغاية ، سيطرت على شبه جزيرة إيبريا . فالذين استقروا في الأندلس كانوا مبدئيا أفرادا من هذه أو تلك القبيلة ، عربا كانوا أو بربرا . ومن الجائز أن هؤلاء الأفراد جرّوا وراءهم بعد ذلك عائلاتهم ، سواء بمعناها الضيق أو الواسع ؛ وبعد استقرارهم عائليا تجمعوا في عشائر. وصحيح أن العرب والبربر ، وكذلك المولدين ، حافظوا بحماس على أنسابهم القبلية وافتخروا بأعراقهم ، ولكن هذا في حد ذاته لا يعنى بناء اجتماعيا متجانسا وتماسكا اجتماعيا خاصا . وبالرغم من أن القبيلة كانت ميتة اجتماعيا ، فإن القبلية لم تكن كذلك ، كما قد تبين . وفي المقابل كانت للعشيرة سريان كامل وستشكل الرابط الملائم لهيكل المجموعات البشرية .

وما يمكن الإشارة إليه من أمثلة على العصبية القبلية الظاهرة كما في حادثة احتكاك بلج المعلومة في الصراع القبلي مع رجاله اليمنيين المخلصين ، والأصل القرشي للأمير عبد الرحمن بن معاوية بين أنصاره ، وكذلك الأصل القرشي للأمير يوسف الفهري ، هي كلها أمثلة مرتبطة لحد كبير بالعمل السياسي الظرفي وتفتقر إلى القيمة التي قد أُجْتُهِد في إضفائها على هذه الأمثلة . وحتى القرينة على وجود سلف قبلي واضح في ثأر سلالة قبلية ما من أخرى كانت ظاهرة متأخرة ؛ إذ أن الانتساب القبلي في الفترة ما قبل الأموية كان أمرا مثاليا محضا ، فيما عدا بعض الاستثناءات . وبالعكس يبدو واضحا تماما الالتحام الاجتماعي للعشيرة على أساس النسب القريب . والعشيرة دليل ، كما ألمح ابن خلدون ، على فقدان المعنى القبلي بالذات ، وهو دائما

بالنسبة له يعنى "العصبية" . ويجوز أن النقد الذي وجهه ابن خلدون إلى الدولة الأموية المشرقية وإلى سمتها الحضرية ، كمبرجزة للقوة القبلية ، يجوز أنه قد امتد أيضا إلى الفترة الأندلسية ما قبل الأموية . وبالرغم من مبالغة كتاب ***أخبار مجموعة*** حول وفرة مساعدة العشائر العربية الأندلسية للمتشامخ بلج بن بشر القشيري وجنده الشامي بعد عبورهم إلى الأندلس ، فإن نفس الأحداث التاريخية تبرهن على أنه قد وجد بالفعل تعاون معتبر، ومناطق الاستقرار التي فرضها ونالها الجند الشامي في أفضل نواحي باطقة القديمة لدليل بيِّن على ذلك .

وقد نوقش بشكل مبالغ فيه نمط استقرار أولئك الجند ، لكن ينبغي أن نتذكر أنه من المشكوك فيه كثيرا أن المسلمين الذين سيطروا على المملكة الإسبانية القوطية قد التزموا بالقواعد الشرعية الإسلامية الأصيلة بشأن توزيع الأموال . فبدأ الخلفاء المشارقة بالشك في موسى بن نصير وطارق بن زياد . كما تبين الأوامر غير المباشرة التي أعطيت للوالي الرابع الحر بن عبد الرحمن الثقفي والمباشرة للوالي الخامس السمح بن مالك الخولاني تبين وجود عدم ثقة واضحة . ولكي نقطع الشك ، نجد ابن حزم من جانب المسلمين وصاحب ***حولية عام ٧٥٤ المستعربة*** ***Crónica mozárabe*** (المعروفة بحولية إيزيدور الباجي) من الجانب المسيحي متفقان على نفي تنفيذ القواعد الشرعية المتبعة التي طبقها النبي (ص) والخلفاء الأول . ولا يجب بهذا الشأن أن نعمم بعض الحالات جيدة التوثيق مثل المعاهدة مع تدمير، فإنها كانت معاهدة مع زعيم متعاون . وكان النصرانيون أولا والبربر بعد ذلك الخاسر الأكبر من الاستقرار المتعسف للبلديين والشاميين . فلو كان الأمر استقرارا على حساب الأموال النصرانية الخراجية حصريا ، عينيا أو على الأرض والماشية ، كما يعتقد صاحب ***البيان المغرب*** ، لكان اقتناء الممتلكات الريفية أمرا لا محالة ، ولكن على جميع الأحوال كان أمرا حقيقيا . ففي أواخر عام ١٣٧ (=٧٥٥) ، قبيل دخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس ، ولم يكد يمضى اثنا عشرة عاما على استقرار الشاميين حتى كان بعضهم يحوز من الأراضي القدر الكافي للتحجج بأن عليه انتظار جمع محصول الشعير قبل الخروج في الصائفة مع يوسف الفهري إلى الثغر الأعلى[٣] .

والسبب الأساسي لاستبدال قوة التلاحم العشائري بالعصبية القبلية بحسب معناها الاصطلاحي يكمن في التكيف الطبيعي الجديد (المادي والاجتماعي) الناتج عن توسع الإسلام السريع والشاسع .

---

[٣] يعتمد المؤلف على كتاب "أخبار مجموعة" (ص ٧١) ، ولكنه – المؤلف – قال : "ولم يكد يمضى ثلاثون عام ..." ، وهذا خطأ واضح في حساب السنين ، إذ أن توزيع الشاميين على كور الأندلس – على ما هو معروف – كان من الإجراءات التي اتخذها والي الأندلس أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي بعد قدومه البلاد في رجب من عام ١٢٥ (= أبريل- مايو ٧٤٢) (م*) .

ومن الصعب وضع مخطط للأندلس قبل عام ١٣٨ (=٧٥٦) وفق معايير علم الاجتماع لأسباب بديهية . وحتى الآن يُعدّ التحديد الكمي ، الممكن ولكنه قاصر لأبعد حد ، هو ما يمكن استنتاجه من دراسة عيار العملة الفضية ومن الغياب المبكر للسكة الذهبية . ولكن من نتيجة العمل السياسي لمؤسس الأسرة الأموية الحاكمة يمكن استخلاص العلامات التالية :

١. كان عدد العرب المستقرين قبل وصول الشاميين محدودا جدا ، ليس بالنسبة إلى جملة السكان الموجودين في عام ٩٢ (=٧١١) فحسب ، ولكن حتى بالنسبة للمسلمين البربر.

٢. لم يحز السكان العرب والبربر أبدا بناء قبليا محضا ، ولكن بناء ذو طابع عشائري .

٣. استقر العرب بشكل تفضيلي في مناطق حضرية أو شبه حضرية ، واستقر البربر في المناطق الريفية ؛ ومع ذلك فالاستثناءات كثيرة للغاية .

٤. تحولت العصبية القبلية إلى عصبية عشائرية ، سواء ذات طابع عرقي أو ذات سمة سياسية .

٥. عدّل الاستقرارُ الشامي الوضعَ ، سواء بالنسبة للعلاقة العربية البربرية كما فيما يتعلق بالسكان العرب حصريا .

٦. كان التماسك الاجتماعي للشاميين ، بسبب أصله وشكل استقرارهم ، أعلى بكثير من تماسك العرب البلديين السابقين على الاستقرار الشامي .

٧. من الجائز أن الجند الشاميين احتفظوا ببنائهم العسكري .

ب) *فرصة عبد الرحمن بن معاوية الداخل*

يعزو المؤرخون المسلمون وصول عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس إلى أمله في إيجاد وضع ملائم لبعث ملك بني أمية . ولكن وضع الأمير الأموي حتى وصوله إلى المغرب يُفسَّر كمحاولة لإنقاذ حياته . فالمصير الذي لاقاه أفراد أسرته باستئصالهم جميعا تقريبا على يد العباسيين يبرر هذا التفسير. وقادته العصبية القبلية على اللجوء إلى قبيلة أمه . ومن الجائز أن عبد الرحمن طمح إلى السلطة ، وحتى حلم باستخلاص الخلافة كاملة لأسرته المتداعية ؛ ولكن من المرجح أن فشل محاولته في المغرب ، إن وجدت ، صرفه عن مشروعه . فإذا كان لم يحرز نجاحا وهو متواجد في أرض بربرية ومستندا على عون محتمل من عشيرة أمه ، فهل كان متوقعا له حظ أفضل في بلد يسيطر عليه العرب ويحكمه أمير باسم الخلفاء العباسيين الممقوتين له ؟ وهل كانت كافية المعلومات والعرض ، وهي أمور ربما كانت مهمة ، الذي قدمه له بعض الموالي الأمويين بالأندلس ؟ من الطبيعي أن المؤرخين كانوا يكتبون بعد تأسيس الدولة الأموية

الأندلسية ، بل وحتى بعد ازدهار الخلافة القرطبية ثم اختفائها . ومن الجائز أن عبد الرحمن الداخل نفسه ، وبمحض تأثير لاوعيه المبلبل ، فكر بعد انتصاره في أن يحتفظ دائما بالرغبة في استعادة السلطة للقضية الأموية . بيد أنه ، وبالرغم من التصورات المخادعة ، فإن للوقائع بناؤها الخاص وجدليتها الخصوصية .

وكانت إمكانية قيام دولة أندلسية سابقة على محاولة الداخل تلك . ولعل الموالي الأمويين الذين استقروا كـ "قوم" تعلموا أكثر من الشاميين الدرس الذي أعطاه لهم الصميل . فمع أمير ينتسب إلى أسرة حاكمة مثل عبد الرحمن بن معاوية ومع القوة الشامية لم تعد المحاولة غير معقولة . ونزوله المغامر هكذا وبكل بساطة وبمعاونة بعض الموالي فيه كثير من الرومانسية ، ولكنه أمرا أقل احتمالا . فطريق الوصول التي اتبعها الأمير الأموي تدل على أن النزول كان أكثر من مغامرة . ونقطة الإرساء ، المنكب Almuñécar الواقعة على بعد أقل من ٧٠ كم من لوشة Loja ، حيث كانت محل الإقامة الأول المعروف للأمير الأموي في الأندلس ، هي ، ولا تزال ، النقطة الأكثر قربا من إلبيرة Elvira (غرناطة) . والوصول إلى ريه Rayyu (أرشدونة) انطلاقا من ملقا ، لو كان اختارها نقطة لنزوله ، كان حينئذ ، وقد كان كذلك حتى سنوات قليلة مضت ، صعبا للغاية . كما أن الموانئ القريبة من تدمير (مرسية) مثل قرطاجنة ، والقريبة من شذونة مثل الجزيرة كانت طرفية بالنسبة لمحل إقامة الأمير في العدوة المغربية . ومن جهة أخرى ، فإن الجند المستقر في البيرة كان جند دمشق ، وموقعهم كان جيد التوسط بين الشرق من جهة جند تدمير ، والشمال من جهة جند جيان ، ومن الغرب من جهة جند ريه . فبدون مساعدة البنية التحتية الشامية هذه لكانت غير ممكنة حملة العلاقات العامة التي قام بها الأمير الأموي مع العشائر اليمنية . ولمّا بدأها كان يعتمد على جيش قوي قوامه أكثر من ألف رجل تم تجنيدهم في البيرة وريه وشذونة وإشبيلية .

ومن جهة أخرى ، يفسر التنظيم العشائري على السواء حملة الموالاة للدعوة الأموية كما الانتصار اللاحق لعبد الرحمن وفشل محاولات مقاومته ومعارضته وخلعه . فقد كان البلديون الأندلسيون والبربر ينظرون بعداء إلى الشاميين ، ولكن ليس بسبب كراهية قبلية ، وإنما بسبب خوف حقيقي من عددهم وقوتهم الحربية . وفي إفريقية تدخل الشاميون لصالح الأمير الشرعي حنظلة بن صفوان ؛ فلما أجبر عبد الرحمن الفهري الأمير المذكور على إخلاء القيروان حرسه الشاميون . وفي الأندلس خلع الشاميون عبد الملك بن قطن الفهري أولا ثم قتلوه بدناءة لاحقا بعد أن حازوا نصيب الأسد . والحكم الذاتي المفترض على عهد يوسف الفهري لم يتجاوز نطاق الحكم الفعلي بسبب البُعد الإداري الفعلي عن بلاط بغداد . بيد أنه لم يوجد كذلك وعي استقلالي

عند عبد الرحمن بن معاوية ، فالذي كان لديه حينما أصبح في الأندلس هو رغبة حقيقية لبعث المُلك الأموي والثأر من العباسيين المغتصبين ؛ ولما انتصر كان ما نتج مُلك آخر وليس حكما مستقلا .

وكان الوحيد الذي انتبه حقيقة لخطر نزول السليل الأموي في الأندلس هو الصميل . فلما عبّر له الموالي الأمويون الأندلسيون عن رغبة عبد الرحمن بن معاوية في الاستقرار في الأندلس كان رده تنبؤيا ، إذ قال : "... رويت فيه (في أمر عبد الرحمن بن معاوية) ، فوجدته من قوم لو بال أحدهم في هذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم في بوله" . ولكن وصل عبد الرحمن إلى البلاد في حمى العشير الشامي الموالي للأموية ؛ وانتصر بهم وبمعاونة البلديين اليمنيين وعدد كافٍ من البربر؛ وبعد انتصاره استقدم منْ وجده من أقربائه ، وإن تآمر بعضهم على سلطانه فيما بعد . ولما أصبحت السلطة الفعلية ذات الأصل العشائري أمرا لا مفر منه اقتصر الأمير على إضفاء اعترافا قانونيا عليها ، وهو ما يبين أن الوضع المبدئي كان السيطرة على السلطة وليس الحيازة الكاملة لها . ولم تحدث هذه الأخيرة إلا بعد أن أصبح كثيرا من السلطة الفعلية لا يكمن أساسه في الحق الإداري مهما كان هذا الأمر الأخير مردودا عليه .

أما عبد الرحمن بن معاوية ، حفيد الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان ، فقد ولد في أحد أماكن الاسترواح والصيد بالشام المحبية كثيرا للأمويين ؛ وكانت أمه من سبايا البربر تنتسب إلى قبيلة نفزة المغربية ، واسمها راح . وبعد مذبحة أبي فُطْرُس نجح عبد الرحمن أولا في الاختفاء ، ولاحقا بعد أن عبر الفرات سباحة استخفي في فلسطين . وقد أضفى المؤرخون طابعا أسطوريا على دور المولى الوفي بدر، الذي كان دوره حقا فعالا للغاية ، ولكن موضوع الوفاء القدري للمولى مع سيده يُعدَ من قبيل الأقوال العربية الأدبية المعهودة . وفرار عبد الرحمن إلى الغرب له تفسير مزدوج ، فمن جانب ، فلكي يهاجر إلى آسيا الوسطى كان يجب عليه أن يمر بأكثر المعسكرات أهمية للجيش العباسي ، ومن جانب آخر، في الغرب كانت تنزل قبيلة أمه .

ووصل عبد الرحمن بن معاوية إلى إفريقية دون صعوبة ، ولكن الولاية المذكورة كان يحكمها عبد الرحمن بن حبيب الفهري ، وكانت رغبته في الاستقلال تتعارض مع وجود أموي مؤهل للغاية لطلب الحُكم . ولذلك كان على الأمير الأموي أن يرحل من إفريقية . ولا يتفق المؤرخون على مراحل خط سيره ؛ ولكن فيما بعد نجده بين قبيلة مكناسة (بين نهر مَوْلوية وممر تازة) ، وأخيرا أقام بين قبيلة نفزة – قبيلة أخواله – بالقرب من ميناء نكور. ومن عام ١٣٢ (=٧٥٠) إلى عام ١٣٧ (=٧٥٥) (مدة ٥ أعوام) استطاع عبد الرحمن بن معاويةالسفر خلال أقل من عام ؛ ونجهل ماذا فعل خلال مدة السنوات الأربع الباقية وأين كان . إذ لا يوجد دليل واحد

على أنه حاول استعادة الملك الأموي في إفريقية (وكانت مخاوف الحاكم الفهري هي الشيء الوحيد الحقيقي الذي نعلمه) أو في المغرب ؛ وكذلك لا ثمة دليل على أنه فكر في الاستقرار في الأندلس . وكان الوقت ، كنظرية أخرى ، هو الذي اعتمد عليه عبد الرحمن ومولاه بدر لتقرير استغلال حماسة الموالي الأمويين الأندلسيين للدعوة الأموية .

وفي أواخر عام ١٣٦ (= يونيو ٧٥٤) عبر بدر البحر المتوسط واجتمع بشيخيْ الموالي الأمويين في جند دمشق ، وهما عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد ، وبدورهما أخبرا بالأمر زعيم الموالي الأمويين في جند قنسرين ، وهو يوسف بن بخت . لذلك بدأ المشروع في البوادي الشامية بالبيرة (غرناطة) وجيان . وقرر الموالي المذكورون عرض الأمر على الزعيم القيسي الصميل ، الذي كان وقتئذ حاكم سرقسطة والرجل المتنفذ على الأمير يوسف الفهري ، ومن المرجح أن الصميل لم يعط إجابة مرضية أو واضحة . لكن الموالي الأمويين من الجند الشامي بالبيرة وجيان لم يترددوا ، بل قرروا استخدام ورقة المعارضة للقيسية والفرصة المواتية الممثلة في حملة الصميل ويوسف العسكرية على المتمردين في منطقة الثغر الأعلى . فابتاعوا مركبا ووجهوا فيه أحد عشر رجلا فيهم تمام بن علقمة الثقفي مع المولى بدر لأخذ الأمير الأموي ونقله إلى منطقة نفوذهم .

وفي الأول من ربيع الأول من عام ١٣٨ (=١٤ أغسطس ٧٥٥) حلّ عبد الرحمن بن معاوية في ميناء المنكب حيث استقبله موالي تلك الجهات واستضافوه أولا في منزل على مشارف لوشة وفيما بعد في منزل عبيد الله بقلعة طرُّش Torrox بالقرب من إثنخار Iznajar . ثم انتقل إلى إشبيلية (جند حمص) بعد مروره بأرشدونة (جند الأردن) وشذونة (جند فلسطين) ، جامعا قواتا شامية ويمنية (معادية للقيسية) ، وكذلك بربرية . ولما قرر يوسف الفهري أن يصد بالقوة الأمير المتطلع سارت قواته لقطع الطريق باتجاه قرطبة متبعة الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير، بينما صعدت قوات الأمير الأموي إلى مجرى النهر من الضفة اليسرى . وفي ١٠ من ذي الحجة من عام ١٣٨ (=١٥ مايو ٧٥٦) ، وبعد أن عبرت قوات عبد الرحمن بن معاوية النهر ليلا ، انتصرت بسهولة على قوات الأمير يوسف الفهري ، ثم دخل عبد الرحمن بسرعة قرطبة لمنع النهب ليدلل بذلك على أنه ليس محتلا آخر ولكن المؤسس لمُلك جديد ، ولذلك انتهج سياسة جذب وتصالح وإقناع مع الأصدقاء والأعداء ، ومع أقربائه ، مع الموالي والشاميين ، مع اليمنيين والبربر، وكذلك مع القيسيين ، بل ومع المهزوميْن : يوسف الفهري والصميل . وبالطبع لم تستطع هذه السياسة استبعاد ، وبالفعل لم تلغ ، استخدام القوة العاجلة والناجعة ضد كل حركة انفصالية وتآمر وخيانة . ووجد اليمنيون والبربر الذين أيدوه في البداية كما الفهريون الذين

حاربوه نفس اليد القوية والصلابة المماثلة حينما تآمروا أو ثاروا على الأمير، ولا حتى نجا من قمعه أقرباؤه لما حاول بعضهم التآمر عليه .

٥. تنظيم الإدارة الأموية الأولى

من الصعب تتبع تنظيم المُلك الأموي الوليد الذي أسسه عبد الرحمن بن معاوية ، ولكن ليس مستحيلا بحثه . وينبغي مع ذلك تجنب العقبة السهلة بالعزو إلى الأموي الأندلسي الأول النظام المتقدم الذي وضعه عبد الرحمن الناصر والإصلاح البغدادي الذي قام به عبد الرحمن الأوسط . ومن جانب آخر ينبغي التأكيد على أن كل هذا التنظيم ليس له صلة بإدارة الدولة كما هو مفهوم ابتداء من نشأة الدولة الحديثة الأولى . فقد انطلق تنظيم دولة عبد الرحمن الأول من نظام المراتب السائد بين المسلمين الأندلسيين في الفترة ما قبل الأموية ، والذي تمثل فيما يلي :

١. رئاسات سياسية عسكرية كبيرة ذات نطاق محدود وظرفي .

٢. إدارات إقليمية ذات سلطة شبه مستقلة في الثغور.

٣. نظام امتياز شبه إقطاعي في الكور.

٤. جيش مجند بشكل مؤقت وظرفي مُقدّم من العشائر والكور.

٥. طابع مرن في مناطق الثغور.

٦. نظام اقتصادي استكفائي بالكامل تقريبا مع تقييد للتجارة الخارجية ومحافظة على قيمة العملة .

٧. سياسة دينية متسامحة لجهل تشريعي ضمني .

٨. احترام نفعي لأقليات الذميين (النصارى واليهود) طالما قبلوا الوضع الاجتماعي الخاص بالخاضعين .

وواصل عبد الرحمن الداخل وعزز مبدأ إسناد الخطط السياسية العسكرية الكبرى للأقرباء والصنائع والموالي . وقد أشير سابقا إلى نداء الأمير لأقاربه لكي يستقروا في الأندلس ؛ والوضعية الخاصة التي كانت لهم في زمن عبد الرحمن الثالث هي نتيجة استخدام مترسخ من قبل . ولكن الامتيازات التي تمتعوا بها لم تكن مع ذلك إنعاما ملكيا محضا إنما كانت مقابل جهودهم الخاصة السياسية العسكرية . وكانت ولاية الخطط الأساسية ، ضئيلة ومحدودة الصلاحيات ، مثل خطتي الوزارة والحجابة ، قاصرة على الأمراء الأمويين أو الصنائع أو الموالي أو العسكريين الذين أيدوا الدعوة الأموية منذ الساعات الأولى ، وهم عبد الله بن خالد ، ويوسف بن بخت ، وحسان بن مالك ، ومن المحتمل عبيد الله بن عثمان (وزراء) ؛ وتمام بن

علقمة ، ويوسف بن بخت ، وعبد الكريم بن مهران ، وعبد الحميد بن مغيث ، وفتى للامير اسمه منصور (كلهم حجاب) . وهؤلاء معروفون لنا جيدا وكانوا أوفياء للأمير منذ بدء قدومه إلى الأندلس ، ونجدهم مع بدر في عام ١٣٧ (=٧٥٤) أو مع الأمير في سفره في عام ١٣٨ (=٧٥٥) . وكان المولى بدر وأبو عثمان عبيد الله بن عثمان يتوليان قيادة الجيش بشكل دائم . وفي عمليات ظرفية مثل حالة الثورات غير المتوقعة ظهر كذلك قادة عشائريون مثل الأموي عبد الملك بن عمر المرواني ، ابن عم الأمير.

ونُظِّم حكم الولايات ، المأخوذ من نظام الأسقفيات الرومانية ، بُعيد السيطرة على حكم البلاد ؛ فاقتصر عبد الرحمن الأول على قبول الكور وقواعدها التي يقيم فيها الولاة كما هي . وفي البداية ، متبعا قاعدته السياسية العامة ، كان يثبت الوالي القائم ؛ وإذا ظهرت مؤامرة أو ثورة ، وبعد القضاء عليها قضاء مبرما ، كان يستبدل به واليا جديدا من العشيرة . ومع ذلك ، فقد أبقى على الاستقلال المرن لوظائف الوالي ، وبالأخص في الثغور. كذلك ثبَّت نظام الامتيازات شبه الإقطاعية الخاصة باستقرار الجند الشامي ؛ كما لم يفعل أي شيء من أجل الحدّ من الطابع المرن البالغ بمناطق الثغور الواسعة .

ويبدو أن صمت المؤرخين العرب يشير إلى أن الأمير عبد الرحمن لم يقم بأي إصلاح اقتصادي يمكن أن يمثل تجديدا حقيقيا للنظام الأندلسي القائم في الفترة ما قبل الأموية . فمن المرجح أن التجارة الخارجية كادت تكون معدومة ، والتجارة الداخلية محدودة وذات اكتفاء ذاتي . وأحدث ، أو على الأقل حافظ على ، عملة قوية . فقد كانت العملتان الأوروبيتان الرئيسيتان في القرن الثامن الميلادي هما عملتا شارلمان وعبد الرحمن الأول ، وفي حين ظلت هذه الأخيرة محتفظة بقيمتها خلال كل عصر الدولة الأموية ، فبالكاد احتفظت عملة شارلمان بقيمتها خلال أيامه . والأكثر دهشة في سياسة عبد الرحمن الأول وخلفائه النقدية المحافظة أنها حملتهم على استمرار استخدام العملة المشرقية أو عملة من المسكوكات الأندلسية الأولى ، وهو ما أبقى على المسمى بـ "التخيّل الخلافي" ، إذ تظهر في العملات المذكورة أسماء الخلفاء العباسيين الممقوتين .

ويظهر معنى محافظ مماثل في الميدان الديني ؛ فمن الجائز أنه خلال العام الأول من حكم عبد الرحمن الداخل استمرت الخطبة تلقى في قرطبة باسم الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، أي حتى عام ١٣٩ (=٧٥٧) . ولا نعلم إن كان ابتداء من هذا التاريخ قد حُذف اسم الخليفة العباسي دائما ، إذ أنه كان يمكن انتظار أي شيء تقريبا من رياء علماء الدين . فضلا عن ذلك ، اتخذ عبد الرحمن الأول ألقابا مثل "ملك" و"أمير" و"ابن الخلائف" ، وهذا اللقب

الأخير كان حقيقيا حرفيا ، ولم يتخذ أي لقب من ألقاب الخلافة . كما استمرت في عهده سياسة احترام الأقليات على ما تؤكد الأحداث المؤسطرة الخاصة بشراء نصف دير القديس بجنت أو بزنت (سان فيثينتي San Vicente) القديم من النصارى والتصريح لهم بإنشاء أماكن عبادة في الأرباض .

ولكن فعالية سياسة الأمير الأموي تُلاحظ في إنجازين أساسيين ، وهما إنشاء جيش نظامي وإحداث طابع جديد للحاضرة قرطبة .

وبالنسبة للإنجاز الأول ، فقد استخدم عبد الرحمن الداخل في بداية ملكه النظام العسكري التقليدي الخاص بالفترة ما قبل الأموية ؛ فكان الأمويون والشاميون واليمنيون والبربر يؤلفون معظم قواته العسكرية ، سواء بداية في مواجهة الصميل ويوسف الفهري كما تاليا في إخضاع الثورات المتتالية وللقيام بالحروب الثغرية . ولكن لـمَا تمكن الأمير الأموي الأندلسي الأول من الاستمرار في سياسته الحكيمة لو ظل معتمدا على العون المتردد لقوات العشائر في مواجهة المنافسين المتلاحقين . وقد استطاع في آخر المطاف القضاء على هؤلاء جميعا تقريبا ، وإن تم هذا بشكل متعاقب . وكان بين المنتقضين عليه مَنْ لم يحجم عن رفع لواء العباسيين الأسود الممقوت ؛ وإن كنا لا نعلم مدى مهارة خلفاء بغداد البعيدين ودورهم في تلك الثورات . وبالرغم من ذلك ، لم يكن المناصرون المفترضون للعباسيين ، ولا حلفاء الصميل ويوسف الفهري ، وهم قيسيون بالأساس ، الذين كانوا يقلقون مؤسس الملك الأموي الأندلسي ، ولكن ما كان يشغله هو اعتماده على جيش عشائري . ومع ذلك ، فإنه في الخطر الحقيقي الذي أحدق في إحدى المرات بالعاصمة قرطبة نفسها اتكل على رجاله المخلصين الأمويين والشاميين ، كما اعتضد باليمنيين والبربر في صراعات عسكرية أخرى مثلما حدث في ثورتي طليطلة الخطيرتين في ١٤٧ (=٧٦٤) وفي ١٦٨ (=٧٨٤) . وإن انتهى الحال بالعشائر اليمنية إلى الثورة على الأمير الأموي ، وذلك بعد أن استوفت ثأرها من القيسية وطمعا منها في غنائم جديدة .

ومن كل ذلك استشف عبد الرحمن الأول خطورة الاعتماد على جيش مؤلف من العشائر، وهو ما تبين له في تمرد عام ١٤٦ (=٧٦٣) حينما لجأ إلى قرمونة واحتمى بها مع مجموعة من خاصة قواته الثقاة . وابتداء من ذلك الوقت ، إن لم يكن قبل ذلك ، قرر إنشاء جيشا نظاميا ستظهر فعاليته في الحملة على ثوار لبلة في عام ١٤٩ (=٧٦٦) ، وإن كان حينئذ لا يزال غضا . وبهذا الجيش تمكن من النهوض بالعجل للقضاء على الثورة اليمنية في عام ١٥٧ (=٧٧٤) ، بالرغم من انشغاله حيبئذ بمواجهة تمرد شقيا البربري ، وألحق الهزيمة بالمنشقين اليمنيين بشكل تام . وتنظيم جيش نظامي جديد فحسب يفسر انتصار العاهل الأموى على التمرد

البربري الخطير بزعامة شقيا بن عبد الواحد ، الذي جمع إلى انتسابه الشيعي المزعوم (كان يتطلع إلى أن يكون الإمام الشرعي كسليل افتراضي لفاطمة بنت الرسول عليه السلام) قيادة عسكرية حكيمة ، وهي سمة من سمات المجموعات البربرية العسكرية . ويبدو مبالغا فيه أن عدد الجنود غير العرب (عجم) بجيش عبد الرحمن الأول النظامي كان أكثر من أربعين ألف مقاتل ، طبقا للمقري[٤] . وعلى أي الأحوال ، يجب القبول بأن جيش الداخل الجديد ضم قواتا كبيرة مسيحية ، من البرتات وما وراء البرتات ، إلى جانب فرق عسكرية مماثلة جُندت من بربر شمال أفريقيا ؛ وهذه وتلك القوات كانت منخرطة تحت قيادات أموية وشامية . وأعطى التكوين المتوازن والقيادة الأموية المباشرة ، التي باشرها الأمير نفسه بشكل مباشر في الأوقات الصعبة ، هذا الجيش فعالية محققة أتاحت للأمير الداخل القضاء على كل حركات التمرد عليه والاحتفاظ بخط اتصال الحدود ، بل وتقدمه .

وأما بالنسبة للإنجاز الثاني المتعلق بكرسي الملك الأموي ، فإن عبد الرحمن الداخل حَوّل قرطبة إلى عاصمة بحق ؛ وكذلك في هذا الشأن أخذ في الاعتبار ثقل الشروط الاجتماعية للفترة ما قبل الأموية . وعلى ما يبدو يعود القرار باتخاذ عاصمة ولاية الأندلس في قرطبة إلى الطابع الطرفي البالغ لإشبيلية ؛ ولكن هذا القرار كان حقيقة مشروطا بكيفية التدخل العسكري الإسلامي . وكانت عاصمة المملكة الهسبوقوطية قائمة في طليطلة ؛ ومع ذلك ، كانت سائر المناطق الهسبانية مبنية في حكومات إقليمية منسوخة من تقسيم دقلديانوس القديم للأسقفيات . ومنذ أيام العاصمة النربونية احتفظ السكان على جانبي البرتات الشرقية بهذه البنية الإقليمية .

ومن جهة أخرى أكد البقاء الطويل لمملكة السويف في جليقية حكما ذاتيا حقيقيا فعليا للمنطقة المحصورة بين الجزء الغربي من الضفة الشمالية لنهر دويره ومنطقة أشتوريَش . وأما باطقة ، فقد تحولت عاصمتها الإشبيلية القديمة إلى قرطبة ؛ وبالتحديد كان لذريق ، قبل وصوله إلى ملكه القصير، حاكما على باطقة حتى عام ٧١٠ ، وكان مقر إقامته فيما ستكون عاصمة ولاية الأندلس . ولم يستطع موسى بن نصير إتخاذ أي عاصمة ، أولا بسبب حملات الفتح ، وفيما بعد بسبب استدعائه السريع إلى بلاط دمشق . ومع ذلك ، استقر ابنه وخليفته ، عبد العريز بن موسى ، في إشبيلية ؛ وهناك أقام مع زوجته وفيها قتل في عام ٩٧ (=٧١٦) . ومن المرجح أن الاستقرار في قرطبة بقرار من الحر بن عبد الرحمن الثقفي وقع قبل عام ١٠٠ (=٧١٩) ، لأن في هذا التاريخ توفي الأمير المذكور. وعلى أي الأحوال ، من المفترض أن العاصمة قرطبة في بداياتها خلال الفترة ما قبل الأموية كانت مزعزعة ؛ فحاميتها كانت من الضعف البالغ بحيث أنه

---

[٤] راجع نفح الطيب ، ٣/٣٦-٣٧ ؛ وكذلك محمد عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، ١/ ٦٧٨ (م*) .

في عام ١٢٣ (=٧٤١) احتلها شاميو بلج .

ويُؤسس منشأ العاصمة فحسب بالسؤال لِمَ لمْ يحتفظ المسلمون بالعاصمة في طليطلة ، فهم في الأخير قد خلفوا فعليا المملكة الهسبوقوطية . فربما لو لم يُستدعَ موسى بن نصير إلى دمشق لكان محتملا أن تستمر طليطلة كعاصمة . وسواء كانت العملة طليطلية أو شمال أفريقية التي على ظهرها يمكن أن يقرأ : "هذا الدينار مضروب في إسبانيا hic solidus feritus in Spania" ، فإنها تدل على ميول ملوكية . ومن الجائز أن عبد العزيز بن موسى كان يعتبر منطقة باطقة الغربية ، التي فتحها أبوه ، كإرث عائلي ، ولذلك كان ينبغي عليه أن يقيم في إشبيلية ، وهناك قُتِل بعد ثلاث سنوات على التقريب ؛ وخلفه في ٩٧ (=٧١٦) ، وإن كان بشكل مؤقت ، أيوب بن حبيب اللخمي ، ابن أخت موسى بن نصير. وحيال هذا الوضع ، من الممكن أن الحُرّ بن عبد الرحمن الثقفي حمل معه أوامر من والي أفريقية بالقضاء على تقلبات العشير الإشبيليى المفترض ، وأحد طرق تحقيق ذلك الغرض كان تأسيس العاصمة في جهة أخرى ، ولكن على ألا تكون بعيدة جدا عن مشارف شمال أفريقيا ، فلم يكن والي إفريقية ولا خليفة دمشق مقتنعين تماما بصلابة هكذا الفتح الذي كان من السهولة والسرعة بمكان . وعلى هذا ، قام بالأعمال الأولى المهمة في العاصمة الجديدة قرطبة الوالي الخامس ، السمح بن مالك الخولاني (١٠٠-١٠٢=٧١٩-٧٢١) ، بأمر صريح من خليفة دمشق عمر بن عبد العزيز. وهي أعمال جد متواضعة متمثلة في ترميم القنطرة الرومانية ومقبرة الربض ، وإعادة بناء ما ثلم من السور باللبِن ؛ ومنذ ذلك الوقت أصبح وضع قرطبة كعاصمة مؤكدا بأمر من الخليفة . ومع ذلك ، وفيما عدا الأعمال آنفة الإشارة ، فبالكاد نعلم أكثر من ذلك عن تطور مدينة قرطبة من ١٠٢ إلى ١٣٩ (=٧٢١-٧٥٦) . وإذا كانت قطعة من دير القديس بيثينتي كافية لإقامة صلاة وخطبة الجمعة ، فإنه يجدر بنا الظن بأنهم كانوا قليلين أهل الخدمة في قرطبة حيث كان يجب عليهم أن يظهروا خضوعهم وولاءهم لوالي الأندلس القريب وللخليفة البعيد الذي كانت تقام الخطبة باسمه .

وقد لحقت الأساطير ببناء مسجد قرطبة بأمر عبد الرحمن الأول . وينبغي أن نتذكر، وإن كان هذا معروفا ، أن المسلم ليس مجبرا شرعا على القيام بصلواته في مكان محدد على نحو الكنيسة بالنسبة للنصراني ، ولا حتى في حالة صلاة الجمعة ؛ إذ يكفيه أن يقيم الصلوات الخمس اليومية في مكان طاهر ومنزو، وعمليا يقتصر على فرش حصيرة الصلاة في غرفة بالمنزل أو في الخيمة أو حتى في الخلاء . وبالطبع ، إقامة صلاة الجمعة وخطبتها في المسجد من الأفعال المحمودة ؛ ولكن أي تماثل لذلك مع الفرض المسيحي بإقامة صلاة الأحد بالكنيسة يعد أمرا

مخادعا تماما[٥] . وفي المقابل ، كان من الضرورة الأدبية أن يوفر رجال البلاط وأهل الخدمة والأعيان للحاكم لصفته الدينية والسياسية والعسكرية مكانا آمنا في المسجد لحضور الصلاة الجامعة ؛ وقد بُدأ في تحقيق ذلك ابتداء من انتصار العباسيين في ١٣٢ (=٧٤٩)[٦] . وتفسير الزيادات المتوالية لجامع قرطبة بنمو السكان يعد تعليلا لا طائل له ؛ فما يتبين من تلك الزيادات هو تنامي جماعة رجال البلاط والديوان[٧] .

بالإضافة إلى ذلك ، لم تبدأ أعمال عبد الرحمن الداخل الإنشائية إلا في عامي ١٦٨ و١٦٩ (=٧٨٤-٧٨٥) (بناء أولية قصر الإمارة في جزء من الأرض حيث يرتفع الآن القصر الأسقفي ، والإنشاء الأول للمسجد الجامع) ، خلا بناء أو تقوية سور السمح في عام ١٥٠ (= ٧٦٧) الذي كان قد تهدم بعد ثورة لبلة عام ١٤٩ (=٧٦٦) . وإذا كان مسجد عبد الرحمن الداخل يبلغ بالكاد خمس المساحة الحالية ، فبوسعنا تخيل ما كان عليه نصف المسجد المذكور؛ فمهما كان عدد السقائف الخشبية التي علقت فيه ، فإنه من الصعوبة أن يتسع لأكثر من بعض مئات المؤمنين . وكذلك إذا وضع في تكلفة عمل عبد الرحمن هذا التعويض الخرافي للمسيحيين عن نصيبهم من أرض دير القديس بيثينتي ، فإن رقم ٨٠ ألف إلى ١٠٠ ألف قطعة ذهبية ليعد ببساطة خرافة ، بل تعد أكثر خراقة جملة القواعد وأسطوانات وتيجان الأعمدة المأخوذة من أبنية رومانية وقوطية لبناء المسجد . وشُيِّد قصر الإمارة ، الذي كان يشير إلى أولية إدارة البلاط الأموي ، في نفس مكان القصر القديم في عام ١٦٨ (=٧٨٤-٧٨٥) . فحتى حينئذ كان المستخدمون في البلاط يقيمون في ذلك القصر الذي كان مقر حكام باطقة القوط واتخذه ولاة الأندلس ابتداء من السمح كمركز للحكم وأسماه المؤرخون العرب "دار الإمارة" .

وفيما يتعلق بمُنية الأمير الأموي القرطبية (قصره الريفي) ، فإنه متبعا تقليد أسرته جعلها في الموضع المسمى الرصافة Arruzafa . وقد أسبغ مترجمو حياة الأمير الداخل طابعا شاعريا على حنينه إلى موطنه بالشام ممثلا في مقطعات شعرية له أنشدها لما وقف أمام نخلة في جنان قصره ذلك ؛ ومن الجائز أنه شيد منيته بالرصافة إحياءً لذكرى بناء جدِّه الخليفة الأموي

---

[٥] من المعلوم أن صلاة الجمعة فرض عين على كل مسلم ، وإن اختلف في عدد الحد الأدنى للمصلين الذي تتطلبه إقامة صلاة الجمعة ، والمشهور بين الفقهاء أنه أربعون رجلا (م*) .

[٦] كان معاوية بن أبي سفيان أول من اتخذ مقصورة في المسجد لحجزه عن باقي المصلين (م*) .

[٧] عزو التوسعات في مسجد قرطبة الجامع إلى زيادة أهل الخدمة وحاشية العاهل الأندلسي فحسب – كما يقول المؤلف – تفسير غير منطقي وفيه قدر كبير من المبالغة . فمن الثابت أن قرطبة كانت تتنامى بشكل مطرد سكانيا وعمرانيا حتى أصبحت في القرن الرابع الهجري (= العاشر الميلادي) أكبر حاضرة في المغرب الإسلامي ، بل قيل إنها كانت ثانية حواضر العالم سكانا في العصور الوسطى بعد القسطنطينية ؛ وتطلبت تلك الزيادة السكانية ، بالتالي ، القيام بإجراء توسعات في مسجد قرطبة (م*) .

هشام بن عبد الملك لقصر بنفس الاسم إلى الشمال الغربي من تدمُر في ١٠٩ (=٧٢٧-٧٢٨) . ومع ذلك لا ينبغي الافتتان بالتعبيرات النمطية المعهودة للأساطير المشرقية . فرصافة هشام المشرقية كانت واحة حقيقية ذات جنان رائعة في قلب الصحراء الشامية ؛ موقع حسن لإشباع الحنين البدوي ، فإذا لم يكن هذا تعبيرا نمطيا أدبيا ، وإذا لم يكن أمويو دمشق يبحثون عن ملجأ مريح محصن ، فإن ذلك القصر كان مناسبا لهم جدا في وقت بدأت تصبح فيه الخلافة الأموية في حالة تزعزع . وعلى العكس من ذلك ، كانت الرصافة القرطبية على أبواب قرطبة ، كما لا تظهر الصحراء من أي جهة ، كما أن العقار الذي أسس عليه القصر كان بيتا ريفيا رومانيا . وثمة فرق هائل في المسافة من دمشق إلى تدمر، التي تصل إلى كيلومترات كثيرة ، عن تلك التي تبلغ أقل من ثلاثة كيلومترات بين جامع قرطبة والرصافة القرطبية . ومن جانب آخر، ما خاطب به عبد الرحمن الداخل النخلة : "يا نخل أنتِ غريبة مثلي" يعد تعبيرا شعريا نمطيا ؛ ففي تلك الأوقات وإن كان الأمير الأموي صارفا النظر عن البلديين ، فقد كان يوجد حوله آلاف من الأقرباء والموالي والشاميين مخلصين له . ولكن تشييد الرصافة القرطبية وسكناها كان قبل كل شيء علامة خارجية على تكريس الحاضرة القرطبية وعلى بقاء التقليد الشامي في الأندلس . وهنا مرة أخرى يفرض الإسلام الأندلسي شروطه الاجتماعية .

٦. مشكلة الثغور: رُنسفالة

كذلك كانت الثغور الأموية نتيجة للبناء الاجتماعي في فترة الفتح . وقد شكلت الثغور الثلاثة دفاعا طبيعيا لأقاليم الأندلس الرئيسية : باطقة القديمة ، والأجزاء الجنوبية من لجدانية Lusitania ، والولاية الطركونية . وكانت المحاور الاستراتيجية الأولية ثلاثة ؛ المحور الأول : ماردة ، وقورية ، ليون ، ولُكْ ؛ والثاني : طليطلة ، ووادي الحجارة ، ومدينة سالم ، وسُرية Soria ، وبنبلونة ؛ والثالث : تطيلة ، وسرقسطة ، ووشقة ، بربشتر، وجرندة Gerona . ولم يشهد الثغران : الأعلى والأوسط تغيرات ذات بال قبل وصول عبد الرحمن الداخل إلى السلطة ، بل حتى لم يكن فقدان جرندة في أواخر ملكه عام ١٦٩ (= ٧٨٥) ، ثم برشلونة في عهد حفيده الحكم عام ١٨٥ (=٨٠١) ، يعنى تغيرا استراتيجيا مهما بالنسبة للثغر الأعلى .

وشيء مماثل ، وإن كان بصورة أكثر مرونة ، حدث مع الثغر الأوسط . فالخط الاستراتيجي : طليطلة ، ومجريط ، وبويطراقو ، وطلمنكة ، وقلعة هنارس ، ووادي الحجارة ، وسيغوينـثا ، كان دائما تقريبا خط حدود أكثر هدوءا ؛ وبالعكس ، خط أتينثا Atienza ،

وألماثـان ، وسُرية ، ولـوكروي (لوغرونيو Logroño) ، وقلهرة ، وبـانكوربو Pancorbo ، وميراندا Miranda ، كان خط تماس أكثر تجاورا . ومع ذلك ، فلم تشهد أي نقطة من نقـاط ذلـك الخط النظري تغيرات خلال ملك عبد الرحمن الـداخل . وأصبحت مشكلة المرونـة الاسـتراتيجية الواسعة قاصرة على الثغر الأدنى . فقد حدث تراجع الاستقرار الإسلامي ، وما نتج عنه من إقفـار سكاني عميق نسبيا ، وحدوث الخلاء الإداري بمنطقة دويرُه ، حدث قبل خمس عشرة سنة من وصول عبد الرحمن الأول إلى السلطة .

وبإبقاء الأمير على "الوضـع التخيلـي" للثغور (الذي قد سبّب مشكلات عديدة لخلفائـه ، وفـي بقائـه كـان يكمـن أحـد الجـذور المتعـددة لسقوط الدولـة الأمويـة بعـد مـوت آخـر الحُجّـاب العـامريين) أُضـطر لتـرك الخط الاستراتيجي : مـاردة ، قوريـة ، سـمورة Zamora ، وليـون ، وأسترقة ، ولـُكْ ، ابتداء من مـاردة . وحددت منطقة تمـاس الثغر فـي دويـرُه ، فتراجعت نقـاط الارتكاز الأساسية إلى قلمرية Coimbra وقورية وطلبيرة Talavera . وكان على الصـوائف الموجهـة ضـد مملكـة أشتوريَـش أن تسلك طريقـا طويلـة إن انطلقت مـن الثغـر الأدنـي ؛ وعلـى العكس ، فإذا انطلقت من المنطقة الشمالية للثغر الأوسط ، ولن نقول الصوائف التـي كانـت تنطلـق من أقصى غرب الثغر الأعلى متبعة مجرى نهر الإبرُه ، فهي لم تسلك طريقا أقصر فحسب ، بـل كانـت تـدخل سريعا فـي تمـاس مـع الحد الشرقي لمملكـة أشتوريَش : قشـتالة . ومـن الجـائز أن لـو قضى عبد الرحمن الأول على التخوم الإسلامية فـي منطقـة شمال دويره وعمرّهـا سكانيا ، لوجـد تـاريخ آخـر لاحـق لشبـه جزيـرة إيبريـا ، ولكـن لربمـا فقد مُلكـه فـي المحاولـة ، ولظهـرت ممالـك الطوائف قبل ثلاثمائة عام من ظهورها الفعلي .

وفـي الأنـدلس أسـس بشـكل سـريع المركـز الاستراتيجي الأساسـي بـالثغر الأعلـى ، وهـو سرقسطـة . وفـي سرقسطـة كـان الفـاتحون المسيطرون قليلين ، والمقاومـة معدومـة ، والتحالفـات عديدة وسريعة . وبالطبع لم تكن سرقسطة خالية من الصراعات السياسية القبلية ، ولكنها لـم تتـأثر بالثورة البربرية . ومنذ عام ١٣٢ (=٧٤٩-٧٥٠) كانت سرقسطة مقرا لـوال ، وعلـى هـذه الصـفة أرسل إليها أمير قرطبة يوسف الفهري بالصميل . وكان وضـع سرقسطـة خطيـرا فـي الأعـوام مـن ١٣١ إلـى ١٣٦ (=٧٤٨-٧٥٣) بسـبب القحـوط والمحاصـيل السيئة ؛ واجتهـد الصـميل فـي حـل المشاكل . ولكن ما لم ينجح فيه هو أن يترك اليمنيون والبربـر الشـحناء القبليـة ؛ وبتحالفهمـا معـا حاصروه في سرقسطة ، ولم يُرفع الحصار حتى أواخر عام ١٣٧ (=٧٥٥) بوصـول جيـش نجـدة تسلل فيـه ثلاثـون فارسـا مـن المـوالي الأمـويين . وكـذلك ، حـالمـا سـيطر عبـد الـرحمن الأول علـى باطقة القديمة كلف مولاه بدر بالدفاع عن الثغر الأعلى ، وعيّن تمّام بـن علقمـة واليـا علـى جهـات

وشقة وطرطوشة وطركونة . ومع ذلك ، فقد ظلت قرطبة على مسافة بعيدة من سرقسطة ، وكان حال الثغر حرجا ، فالأقليات قوية ، والسادة العرب منقسمون أشد الانقسام ، والجيران الأعداء قريبون للغاية ، والإقليم مهيأ لما يشبه الاستقلال ولحوك المؤامرات . وكانت إحدى وسائل الوالي بدر للتهدئة هي إرسال سليمان بن يقظان الكلبي المعروف بالأعرابي إلى قرطبة . ولكن هذا الأخير حينما واتته الفرصة عاد إلى سرقسطة حيت بدأ التآمر مع أبي الأسود محمد بن يوسف الفهري المعروف بالأعمى ، الذي كان قد هرب من السجن الذي حبسه فيه الأمويون ، ومع الحسين بن يحى الأنصاري . وانتهى الأمر بهذه المجموعة إلى إقناع قارْلُه (شارلمان Carlomagno) بالإقدام على محاولته إحداث ثغر إفرنجي يمتد حتى نهر الإبرُه .

إنه من الصعوبة أن نعرف بتفصيل حقيقي كيف كانت أولية مدينة سرقسطة ؛ ومع ذلك ، يتفق الجغرافيون على تخطيطها العادي ، وعلى صلابة أبنيتها ، واتساع شوارعها ، وأجزائها الأربعة الموجهة نحو الجهات الأربع الأصلية ؛ وكذلك أشاروا إلى أنها كانت نقطة تقاطع كل الطرق وأن لها قنطرة كبيرة على نهر الإبرُه . وفيما يتصل بخصوبة أرضها وغنى مياهها ، فإن الإشادات بالغة بهذا الصدد . ووصلت شهرة بياض أسوارها ومبانيها – أكثر من مرة أطلق عليها "البيضاء" – إلى القلقشندي فيقول : "بيضاء في أرض طيبة ، قد أحدقت بها من بساتينها زمردة خضراء"[٨] ، أي مدينة بيضاء فحصها أخضر.

وعلى أي الأحوال ، فمثلما أجبر موقع طولوشة القوي في أيدي الدوق أودو الجيوش العربية على التفرع نحو نهر الرون ، أو محاولة الغزو من الجانب الأيسر (الغربي) ، مختارين طريق رنسفالة القديمة ، وجدت جيوش قارله مغلقا أمامها المدخل الأيمن (الشرقي) : جرندة وبرشلونة وطركونة وطرطوشة ولاردة وبربشتر وخاقة Jaca ووشقة ، وذلك جعل صعبا أمامها المسار الطويل نحو سرقسطة . وأغلق البشكنس هذا المسار، الذي لم يكن سهلا حينئذ وتشغله حاليا الطريق الوطنية ١ ، المار بما يلي : بيداسوا Bidasoa ، ويارثون Oyarzun ، تولوسا Tolosa ، ألساسوا Alsasua ، ميراندا ، ثم ينحدر نحو مجرى نهر الإبرُه ابتداء من ريوخا العليا Rioja Alta . وكانت المرحلة الأقل تعقيدا فيها هي الأكثر وعورة ، ولكنها مباشرة ؛ والعقبة الأكثر خطورة فيها تمثلت في وجود الموقع الرئيسي المحصن في المنطقة الشمالية الشرقية من الثغر الأعلى وهو بنبلونة . وكانت هذه المدينة قد فتحت بعد عام ٩٥ (=٧١٣) وقبل ٩٩ (=٧١٧) ؛ ولكن السيطرة الإسلامية عليها لم تتجاوز فحصها ؛ وظلت للبشكنس السيادة على أراضيها وعلى الوديان العميقة .

---

[٨] راجع صبح الأعشى ، ٢٣٢/٥ (م*) .

وكان البشكنس ، بعد هزيمة عبد الرحمن الغافقي في بواتييه ، قد حاربوا عبد الملك بن قطن بشكل مفتوح وبنجاح فيما بين ١١٤-١١٥ (=٧٣٢-٧٣٤) ، ثم حاربوا عقبة بن الحجاج ولكن دون فلاح . ولما وقعت ثورة البربر في عام ١٢٢ (=٧٤٠) استغلها البشكنس ، ويبدو أنهم كانوا مصدر قلق لوالي قرطبة يوسف الفهري إلى حد أنه أرسل لحربهم في عام ١٣٨ (=٧٥٥) جيشا ، وإن كان ضئيلا ، تحت قيادة سليمان بن شهاب بنية أن يلقى هذا الأخير حتفه في المهمة ، كما هكذا حدث . وبالرغم من أن المؤرخين الكارولونجيين يصفون بنبلونة بأنها "قلعة البشكنس" ، فإن الوصف لا يعرض الفرنج لأي حرج باعتبار البشكنس نصارى مثلهم ، كما لم يكونوا أصدقاء لهم فتظهر الحملة الكارولونجية كهزيمة أمام الإسلام . وبالعكس يروي المؤرخون الكارولنجيون هدم "القلعة" بعد الانسحاب ، وتلك إشارة بينة إلى أن الفرنج لم يشاءوا أن يتركوها سليمة في أيدي أعدائهم المسلمين . ومن الجائز أن البشكنس كانوا في حالة سيئة وقت الهدم ، فلم تكن وقعت بعدُ هزيمة رُنسفالة .

وكان السبب الرئيسي لوجود المساحة المرنة الواسعة بالمناطق الحدودية للثغر الأعلى ، والتي كانت تشغلها مجموعات قبلية تقريبا نصرانية وتقيم في تجمعات سكانية متناثرة (فوندوس fundus) ، هو القرب من منطقة التماس . وبينما وجدت في جهة الحدود الغربية منطقة تماس واسعة تراوحت دائما من مائة إلى مائتين كيلومتر بسبب عدم الاحتفاظ بمراكز الاستيطان الإسلامي في وادي دويرُه ، كان التماس في الثغر الأعلى مباشرا ومتداخلا . كما أن وديان البرتات طويلة وعميقة أحدثت خوانق ليس في مداخل السلسلة الجبلية فحسب ، بل أيضا في مخارجها . وتمثلت جبهة الثغر الأعلى ، التي كان يجب على المسلمين الاحتفاظ بها بكل صلابة ، في خط تطيلة- طرطوشة ، ولهذا فإن القوتين السياسيتين الواقعتين وراء هذا الخط ، مملكة نبرّة (أو نبارّة أو ناڤار Navarra) لتي ستبزغ فيما بعد غرب الجبهة المذكورة والثغر الإسباني إلى الشرق منها ، كان توسعهما أقل صعوبة من كونتات وأمراء أعالي وديان البرتات الوسطى ، وهما معا كانا أساس مملكة أراغون . ومن المفترض أن خط التماس المتقلب بدأ إلى الشمال من جرندة نحو عام ١٦١ (=٧٧٨) ، والذي احتله الكارولونجيون حتى عام ١٦٨ (=٧٨٥) . ويشمل الخط الطبيعي إلى الشمال من جرندة مناطق بيسالو Besalú وشرطانية Cerdaña وأندورا Andorra وجنوب وادي أران Valle de Arán وبناسكيه Benasque وغيستين Gistain وبيلسا Bielsa وبروتو Broto وتينا Tena إلى كانفرانك Canfranc ؛ ومن هنا إلى أعلى وديان هيتشو Hecho وأنسو Ansó ورونكال Roncal إلى بنبلونة ؛ ومن هذه المدينة الأخيرة إلى ألساسوا ليتوغل في محافظة ألبة Álava الحالية .

ولذلك ، فإن أي عملية عسكرية فعالة على الحدود تكون ممكنة إذا ما بلغت بسرعة سرقسطة واحتلتها دون جهد ، وانطلاقا من هذا الاحتلال يستغل الجيش النجاح بالانتشار شمال وجنوب مياه الإبرُه . وفقط بالتأكد من الاعتماد على قاعدة سرقسطة كان يمكن أن يخاطر جيش بقوة خيالة ثقيلة بالمرور خلال ممر ضيق وجبل وعر جوانبه في أيدي معادية وجبهة مفتوحة على بُعد أكثر من أربعمائة كيلومتر من قواعده .

ومن الجائز أن الكارولونجيين كانوا قد فكروا في إمكانية تأمين مملكة الفرنجة عن طريق إحداث ثغر هسباني يصل إلى نهر الإبرُه . فقد كان الكونت أودو يطرح بإلحاح مشكلة حدوث عمل عسكري إسلامي محتمل انطلاقا من القواعد في أسفل البرتات أو في أربونة . وكذلك يجب الظن بأن الهسبانيين اللاجئين فيما وراء البرتات ، والمتواجدين في كثير من الحالات في البلاط الكارولونجي نفسه ، كانوا يرجحون مثل هذا العمل ، ومن المفترض أنهم عرضوه كعمل سهل إذ هكذا كانوا يرغبون . ومن هذه الافتراضات فحسب يمكن قبول النص المشهور للمقري الذي يعتمد فيه على ابن حيان بشأن عَرْض التحالف المزعوم بين شارلمان وعبد الرحمن الداخل :

"وخاطب عبدُ الرحمن قارْله ملكَ الإفرنج ، وكان من طغاة الإفرنج ، بعد أن تمرَّس به مدة ، فأصابه صُلْب المَكْسِرِ ، تامّ الرجولية ، فمال معه إلى المداراة ، ودعاه إلى المُصاهرة والسلم ، فأجابه للسلم ، ولم تتم المصاهرة"[٩] .

وأعطى شيخ عربي معروف الفرصة للمجازفة العسكرية ، ولكن سببها كان معقدا كما كان مرهقا خط حدود الثغر الأعلى في القرن الثاني الهجري (= الثامن الميلادي) . وما كان ليثق هسباني ، مسيحيا كان أو مسلما ، أبدا في الزعيم الكلبي سليمان بن يقظان الأعرابي . ويتبين أن تعيينه كوالٍ على سرقسطة ملتبس وليس واضحا بشكل كاف . ومن المفترض أنه نحو عام ١٦٠ (=٧٧٧) اتصل بعبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلبي ، المثير للفتن والذي كان يعمل بأمر الخليفة العباسي المهدي . ثم عاد ابن الأعرابي ، بعد أن قطع العلاقات مع الصقلبي ، إلى سرقسطة ، وبتحالفه مع الحسين بن يحيى الأنصاري تمرد على الأمير الأموي ، ولكن كان انتقاضه لصالحه الخاص وليس لصالح الخليفة العباسي . ولم تجرؤ القوات الأموية المرسلة إلى سرقسطة تحت قيادة ثعلبة بن عبيد الجذامي على محاصرة المدينة على نحو فعّال بعد أن وقع

---

[٩] انظر نفح الطيب ، ٣٣٠/١-٣٣١ . ومن اللافت للنظر أنه بينما يتضح من النص المذكور أن عبد الرحمن الداخل هو الذي خاطب شارلمان نجد أن المؤلف في ترجمته النص إلى الإسبانية يجعل الفاعل شارلمان ، أي أن الإمبراطور الفرنجي هو مَنْ خاطب الأمير الأموى ودعاه إلى الموادعة والمصاهرة (م*) .

قائدها المذكور في أسر المتمردين .

وترك سليمان الأعرابي مسؤولية الدفاع عن سرقسطة للحسين بن يحيى وانطلق إلى لقاء شارلمان في بادربورن Paderborn ، ومن المحتمل أن ذلك كان برفقة شيخ قبلي آخر من منطقة وشقة يسمى أبو ثور. والقراءة المقارنة للمصادر العربية واللاتينية ، وهي المعروفة بـ ***الحوليات الملكية الفرنجية*** ***Annales regni Francorum*** ، تترك الانطباع بأن شارلمان أصبح مقتنعا بإمكانية نجاح حملة عسكرية وعلى يقين بأن أبواب بنبلونة ووشقة وسرقسطة وبرشلونة وجرندة باتت مفتوحة أمامه ؛ ومن المفترض أن الإمبراطور وقادته العسكريين كانوا يثقون في معلومات سليمان الأعرابي . وتذكر "الحوليات الملكية" أن الزحف العسكري نحو إسبانيا قام به قسمان من الجيش ، أحدهما بقيادة الإمبراطور نفسه ، فدخل من رونسفالة متبعا طريق بنبلونة ، تطيلة ، سرقسطة ؛ وانطلق القسم الآخر من أربونة متخذا طريق جرندة ، برشلونة ، لاردة ، سرقسطة ؛ وإذا كان ذلك كذلك ، فإن الإمبراطور اتخذ الطريق الأكثر مخاطرة . وإذا صدقنا أخباريي ما وراء البرتات ، الذين يتحدثوا عن جيوش ضخمة ، فإن شارلمان انطلق من برودو إلى بنبلونة دون الاتصال المباشر مع الجيش الثاني المتمركز في أكوتين . وفي هذه الحالة تكون منطقية نظرية الجيشين بطريقين مختلفتين ، وكان من المفترض التقاؤهما في وشقة . وإذا كان هكذا حدث ، فإن انتصار الإسلام كان عظيما ، فدون الحاجة لتعبئة الجزء الأعظم من الجيش المتواجد في قرطبة ودون القيام بتحريكه من تلك المدينة ، انتصر عبد الرحمن الداخل على الكارولونجيين .

وعلى أي الأحوال ، توغل الإمبراطور من جهة مفازة رُنسفالة في منتصف ربيع عام ١٦١ (=٧٧٨) وسيطر دون صعوبة على بنبلونة . وأكد وضع الاستقلال الإداري لأعلى وديان البرتات للكارولنجيين المعلومات التي وفرها لهم الشيوخ العرب واللاجئون الهسبانيون ، وتأكد هذا على الخصوص من أنه بدلا من أن يتابع الجيش الفرنجي الطريق من بنبلونة إلى تطيلة ، فإنه واصل تقدمه حتى وشقة مطوقا بذلك مخرج وديان البرتات ، ومن وشقة هبط إلى سرقسطة ؛ كل ذلك يؤكد الثقة في احتلال سلمي لمدينة وادي الإبرُه ؛ ولو كان ثمة اعتقاد في احتلالها عنوة ، لكان صعبا ارتكاب الخطأ العسكري الكبير بترك الجانبين في أيدي المسلمين ، وهما حصن تطيلة من جانب ، وحصن بربشتر من الجانب الآخر.

وحدثت المفاجأة على نفس أبواب سرقسطة ؛ فشارلمان كان يجهل الجذور العميقة للقبلية العربية والبربرية وطابع التماسك الاجتماعي الخاص ببنيتها . ولم يكن الحسين بن يحيى يفكر في أن يقتصر على أن يكون الرجل الثاني المخلص للوالي المتطلع إلى أن يكون مُلَيْكا ، أي سليمان

بن يقظان الأعرابي . فالوقت الذي أمضاه الحسين بن يحيى في سرقسطة دون أن يضايقه الجيش الأموي جعل منه في واقع الأمر واليا جديدا ؛ ولهذا فإنه بشكل طبيعي جدا رفض أن يفتح أبواب المدينة لشارلمان وسليمان الأعرابي . وعليه كان يجب محاصرة المدينة حسب المتبع ، وإذا كان ما أخبرنا به المؤرخون صحيحا ، فإن استسلام المدينة كان ممكنا فحسب لو نفدت منها المؤن . بيد أن القول بأن جيش الإمبراطور، الذي حقق انتصارات من وسط ألمانيا حتى إيطاليا ، لم يمكنه الانتصار بهجمتين على سرقسطة لأمر ضئيل الاحتمال جدا ، إلا إذا لم تكن حقيقية ما قيل عن كثرة تلك القوات ؛ ولكن حصار مدينة بالجوع من قبل جيش بعيد للغاية عن قواعده وبالجانبين في أيدي العدو لأمر بعيد التخيُّل . وبكل صواب استراتيجي ولوجستي أمر شارلمان بالانسحاب ، من الجائز معتقدا أنه لم يُعلم على نحو صحيح بالواقع ؛ لذلك عاد مع سليمان بن يقظان الأعرابي ، ولكن كأسير أو رهينة . ولم يكد يتوقف الإمبراطور في بنبلونة حتى أمر بتحطيم دفاعاتها وتخريب المدينة في أوائل العَشْر الثانية من ذي الحجة ١٦١ (= أوائل العشر الثانية من أغسطس ٧٧٨) ، إذ من المفترض أن المرور بـ رُنسفالة في طريق الإياب وقع في ١٦ من ذي الحجة ١٦١ (=١٥ أغسطس ٧٧٨) إذا لم يكن خاطئا التاريخ الميلادي المذكور الموجود على شاهد قبر إيجيهار Eggihard .

ويفسر الوضع الخاص للثغر الأعلى في القرن الثاني الهجري (= الثامن الميلادي) تنوع روايات معركة رنسفالة . ولكن بخصوصها لا تتعارض رواية "الحوليات الملكية" مع إشارات ***تاريخ ابن الأثير*** وجميعها تؤكد على تعقد نظام الثغور. وتبدو رواية "الحوليات" حقيقية ، فتذكر أن الهجوم وقع في المساء تسترا بالليل وتخفيا عن الجيش ، وأنه كان موجها ضد قوافل المؤن بالمؤخرة وعلى القوات التي تغطي الميمنة والميسرة ، والتي كانت مضطرة إلى الاقتراب كثيرا في منطقة الفج ؛ كما تؤكد على عدم ملائمة الخيالة الثقيلة للأرض الجبلية ولمواجهة سلاح المهاجمين الخفيف ، وتبين انتفاء المعنى العسكري للقيام بعملية تأديبة لاحقة .

وعَزْو الهجوم إلى البشكنس يعد صائبا تاريخيا ؛ بيد أن هذا لا يحمل على رفض المعلومة التي يوردها ابن الأثير ، والتي طبقا لها كان ولدا سليمان الأعرابي المسمان عيشون ومطروح من بين المهاجمين لمحاولة انقاذ أبيهما . وفي هذه الحالة من الممكن أنه قد وجدت معركتان ؛ في الأولى تدخل الجيش المسلم ، الذي من الجائز أنه حقق غرضه وهو إنقاذ الرهائن العرب . وأمام هذا النصر حدثت الثانية بهجوم البشكنس على مؤخرة الجيش الكارولونجي وميمنته وميسرته مساء يوم ١٥ أغسطس ٧٧٨ . وحوّلت عظمة صورة شارلمان والأهمية الأدبية لـ "أغنية رولان" معركة رنسفالة إلى إحدى كبرى أساطير تاريخ غرب أوروبا ، ولكن

الوضع الخاص لنظام الثغور كان حقيقة هو المشكلة . لذلك ، فما دمنا قد وصلنا إلى هذه النقطة يجب طرح السؤال الكبير : لماذا لم يقض الإسلام الأندلسي مطلقا على الجماعات الصغيرة المسيحية القائمة التي انتهى بها الأمر بعد عدة قرون إلى محو المسلمين من خارطة شبه جزيرة إيبريا ؟

بعد انهيار البناء السياسي للمملكة الهسبوقوطية بسط مسلموا الأندلس فعليا مفهوم الذميين (المحميين) على كل الجماعات المسيحية ، سواء التي وقّعَت على وثيقة صلح من قبيل المعاهدة مع تدمير أو التي لم تفعل ؛ واعتقدوا بحسن أو سوء نية أن أولئك استمروا ذميين ، حتى وإن كان قمامستهم مستقلين فعليا ويستخدمون لقب ملك . وإذا كان موقفهم موقف عصيان وتحارب واضحين ، فإنهم كانوا يعتبرونهم كرعية ذمية متمردة ، أو قطاع طريق ، أو سُرّاق ماشية ، وذلك مثلما يطلق مؤرخ عربي على أذفُنْش (ألفونصو الأول Alfonso I) وجنده . ولذلك ، كان حتاما القضاء على مثل هذه التمردات من خلال الصوائف ، وهزيمتهم وفرض الجزية عليهم . وكان القصد السياسي لمملكة أشتوريَش تم لمملكة أشتوريَش- ليون بأن تمثلا تواصل الملكية الهسبوقوطية خافيا بشكل إرادي على الدولة الأموية ، أكثر من ذلك حتى حينما لم تكن تعترف الممالك المسيحية وراء البرتات بخصوصية الممالك المسيحية بشمال شبه جزيرة إيبريا . والثغر الهسباني ، على سبيل المثال ، كان هو ما ينمّ عليه اسمه ، أي ثغر أفرنجي في أراضي هسبانيا القديمة ، وكان الإمبراطور أوتو يسمي العاهل الأندلسي "ملك هسبانيا Rex Hispaniae" .

٧. التنظيم الصوري للدولة الأموية

نال عبد الرحمن الأول شهود بعث سلطان الأسرة المروانية وتوطيده ، وسعى إلى تصحيح الأخطاء البدوية التي قادت أسرته إلى إقصائها ونكبتها في المشرق ؛ ولكنه حَكم بالطريقة التي حكمت به تلك الأسرة ، محتفظا بالبناء السابق على النمط الشامي مثلما حافظ أسلافه على البناء الشامي البيزنطي . وكان يحمل في جعبته فكرة واحدة فحسب ، وهي استعادة المُلك المرواني ، إلى جانب ثلاث علامات على السلطة : صورة مسجد الأمويين ، وقصر الرصافة ، وجيش خاص مخلص لشخصه . وكان عمله المؤسس رائعا ، وطول مدة حكمه وازدهار الأندلس لدليل على فعالية إنجازه . ومع ذلك ، فإن نجاحه كان ممكنا فحسب من خلال منحه امتيازات بارعة للوضع الاجتماعي السابق وفي الأحداث الواقعة على مدى مُلكه الطويل . والنتائج بديهية ، فالبناء الاجتماعي الاقتصادي والتنظيم العشائري ظلا دون تغيير ، ومنطقة

الحدود أصبحت موطدة ، وبالتالي تُركت بذرة الممالك النصرانية دون القضاء عليها ، وتنامت تلك البذرة حتى قضت في آخر الأمر على الإسلام الأندلسي . وكان على خلفاء عبد الرحمن الداخل أن يتصدوا بجدية لمهمة القيام بالأعمال المحددة اللازمة ، وأن يحاولوا عمل "تنظيم صوري" للدولة الأموية .

ولكي نفهم معنى القول السابق ينبغي أن تذكر أن في الإسلام توجد بحق مطابقة بين الجماعة الدينية والمجتمع المدني ، وفي الواقع كانت إمكانية التفريق بينهما حينئذ غير متخيلة . وكان عبد الرحمن الداخل عاهلا ذا حماسة دينية عظيمة ، ولكنها تُفهم كفعل وتصرف خاص به على نحو جذري . وتسمح المعلومات القليلة التي بحوزتنا وصمت الحوليات التاريخية بتأكيد أن الأمير الداخل لم يسمح بأي تأثير عليه من العلماء والفقهاء فحسب ، بل من الجائز أن طبعه منع أيّا كان من محاولة ذلك . ولكن لم يحدث نفس الشيء في حالة ابنه وخلفه هشام بن عبد الرحمن ، الذي كان تدينه محل إشادة من كل المؤرخين . وبالإضافة إلى ذلك ، ففي حين نجهل إن كان أبوه قد اهتم أو لا بالمسائل الدينية ، بالرغم من ثقافته الأدبية الفائقة ، كان هشام ميالا لمخالطة علماء الدين .

أ) *تأسيس الفقه المالكي*

من الصعوبة بمكان ، لأسباب تتعلق بالتسلسل التاريخي ، القبول بأن الفقه المالكي كمذهب تشريعي عامّ قد تم تلقيه خلال مُلك هشام الأول (مستهل جمادى الأولى من عام ١٧٢ إلى ٣ صفر من عام ١٨٠=٧ أكتوبر ٧٨٧- ١٨ أبريل ٧٩٦) . فمالك بن أنس توفي في عام ١٧٩ (=٧٩٥) ، وبالرغم من أن على يديه كان قد درس بعض العلماء الأندلسيين ، يُذكر من بينهم عيسى بن دينار، ويحيى بن مضر، ويحيى الليثي ، وزياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون ، فإن أقصى ما فعلوه عند عودتهم كان تدريس التفسير المالكي . ولكن حاز الفقه المالكي القبول شبه الرسمي في مُلك العاهل الأموي الثالث ، أبي العاصي الحكم بن هشام (٣ صفر من عام ١٨٠ إلى ٢٥ ذي الحجة من عام ٢٠٦ =١٨ أبريل ٧٩٦-٢١ مايو ٨٢٢) .

ومن المفترض أن نفس الشدة التي استخدمها الأمير الحكم في القضاء على الثورات وفي تهدئة دولته قد استنهجها في فرض المذهب المالكي ؛ فحتى حينئذ كانت الأندلس تسترشد بالفقه الأوزاعي ، الذي لم يبق له أثر فيما بعد ؛ ويقتضي منا الأمر أن ننتقل إلى القرن الخامس الهجري (= الحادي عشر الميلادي) لنلتقي بفقيه ينتمي لمذهب آخر، وهو الظاهري المشهور ابن حزم . وحيث أنه من الضروري أن تكون الفتاوى الشرعية سليمة ومُحرَّرة حسب تفسير فقهي

محدد ، فقد احتاج كل مذهب فقهي إلى جماعة من العلماء والفقهاء . وإذا أخذ في الحسبان احتكار المذهب المالكي تقريبا للأندلس ، فإن ميل هذه الجماعة إلى التشكل كطبقة أنتج سلطة مفرطة ظهرت في صيغة أرستقراطية . وخطر جماعة الضغط النافذة هذه ، التي تدخلت في سياسة الأندلس أكثر من مرة ، أصبح متعادلا مع الخدمة الفعالة التي قامت بها في التنظيم الأيديولوجي لنسيج إسلام الأندلس الاجتماعي . وأؤكد على هذا المظهر لأن تاريخ الفكر الإسلامي الأندلسي منذ ابن مسرة إلى ابن رشد يدل بوضوح على أنه فعلا قد وجدت الإدانة المسبقة والتلقائية لأي اجتهاد نظري ، ولكن هذا الموقف لم يكن له تأثير بالنسبة للمفكرين ، ولكنه كان قاطعا لمجموع السكان . فما كان يشغل الأمراء الأمويون هو عموم الرعية ، وكانوا يتصرفون ضد التأمل العقلي إذا أخذ سمة الذيوع ، لأنه كان يمكن أن يفتن الشعب ويضله عن الاعتقاد الصحيح . وبهذا الخصوص يمكن أن يُطالع كمثال منشور عبد الرحمن الناصر المبهم المفرط في الإنشاء المتعلق بإدانة أتباع ابن مسرة .

ب) *الإصلاح الإداري*

وحيث أن القاعدة القانونية لممارسة النسيج الاجتماعي تأسست على الفقه المالكي ، فقد قامت الدولة الأموية الأندلسية بإصلاح إداري عميق . ولكن انشغل الأمير الحكم باحلال السلام في الدولة ، وقد قام بذلك على نحو جيد وصارم ، فلم يقم بالإصلاح ، فتصدى ابنه وخلفه عبد الرحمن الأوسط لهذه المسالة . وقد احتفظ ***المقتبس*** لابن حيان بالمعلومات الخاصة لدراسة الإصلاح ، وهو ياتي من النمط الساساني الذي اقتبسه العباسيون لإمبراطوريتهم . وُتعزى صورة العاهل الأموى الأندلسي باعتباره مصدر كل السلطات الزمنية بمشيئة الله ، التي تنسب إلى الأمراء الأمويين الثلاثة الأول ،ُتعزى بحق إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط . بالطبع هذا يعنى في الواقع أن الأمير كان خليفة الرسول وإن لم يتم اتخاذ هذا اللقب حتى عهد عبد الرحمن الناصر. لذلك فكل قرار إداري (ويدخل فيه بالتحديد ما نسميه نحن الشؤون الدينية) ينشأ من الأمير وبه ، فهو من الناحية الزمنية حاكم مطلق فعليا وقانونيا ؛ وكل هيئة أو سلطة تكون مُخوّلة بشكل صرف ومحددة بشكل التفويض . ومن سلطة العاهل يتفرع الوضع الخاص لعاصمة الدولة والاحتكارات الأميرية وتنظيم الحكومة والجيش وسياسة المرافق العامة .

ج) *تطور العاصمة*

قدُذكر عند الحديث عن العمل المُؤسِّس لعبد الرحمن الداخل أن أحد الأعمدة الأساسية

لسياسته كان الخاص بالعاصمة قرطبة . واحتفظت مدن الأندلس ، باستثناء قرطبة ، بالوضع الاجتماعي المقابل للمدن الرومانية مع كل التحولات التي كانت قد شهدتها إبان عصر الإمبراطورية الرومانية الباكر وعصر الملكية القوطية ؛ وكانت الاختلافات الخاصة بكل مدينة تتفرع من موقعها أو من سكانها أو إلى غير ذلك . ولكن مع الإصلاح السياسي اكتسبت العاصمة وضعا خاصا أكثر قربا إلى الوضع الخاص بالحاضرتين الكلاسيكيتين (روما والقسطنطينية) منه إلى وضع المدن . وكان أحد أخطاء الأمويين المشرقيين يتمثل في نقل عاصمة الخلافة من المدينة إلى دمشق دون إعطاء هذه الأخيرة وضعية خاصة ؛ وكانوا هم أنفسهم ، على عكس ذلك ، يحبون الحياة في مدن الصحراء الحصينة . والأسرة الحاكمة العباسية بنقلها النظام الإداري الساساني أعطت لبغداد بناء خاصا ؛ ولما ظهرت صعوبات لجأوا إلى عاصمة من إنشاء جديد ، وهي سامراء . وأصاب عبد الرحمن الداخل تماما في التأكيد على اختيار قرطبة كعاصمة ، وإن كان هذا أدى إلى تعزيز خطر الانحراف الجنوبي للدولة ، ولعله كان يستطيع تجنب هذا الخطر لو احتفظ بعاصمة القوط القديمة ، طليطلة ، كحاضرة لدولته الأندلسية . وفي قرطبة تأسست قواعد إقليم العاصمة ، كما يقال حاليا ، وهي القواعد التي لا تزال سارية بعد مضى نحو ثمانمائة عام .

د) *الاحتكار المالي والتجاري*

وكان المظهر الثاني المتفرع من سلطة الأمير الأموي هو الاحتكار المالي ، ومن المحتمل أيضا التجاري . وبهذا الصدد كان الإصلاح النقدي الذي أجراه عبد الرحمن الداخل فذا وامتد نجاحه حتى سقوط الدولة . ولكن ، إذا التفتنا إلى ما يقوله أصحاب الحوليات ، نجد أن ضآلة السيولة النقدية كانت كبيرة مما كان له تأثير عال ضد التضخم ، ولكن على حساب تخفيض حجم التجارة . ولتصحيح هذا الوضع غير السويّ أسس عبد الرحمن الأوسط دار السكة في قرطبة ، التي أدارها حارث بن أبي الشبل ، الخبير في تلك المسألة ؛ وسَكّت الدار المذكورة عملة فضية (درهم) وبرونزية (فلس) ، حيث أن العملة الذهبية (دينار) كان لها معنى خاص وتشكل على نحو محدد الاحتياطي النقدي . وبالنسبة إلى الاحتكار التجاري فقد مورس مباشرة في حالة ورش النسيج (دار الطراز) التي كانت تعمل في قرطبة ويديرها خبير اسمه حارث بن بزيع ؛ وبالرغم من أنه لم يحتفظ بأي قطعة طراز من تلك الفترة ، فلا شك أنه كان ذا نمط بيزنطي ، فمن المفترض أن في ذلك الوقت دخلت الأندلس صناعة الطراز البيزنطية الشهيرة التي كان قد نقلها العباسيون . كما كانت التجارة الخارجية محكومة بشكل غير مباشر عن طريق

المكوس المفروضة في الموانئ على شحن وتفريغ البضائع ؛ وكذلك كانت التجارة الداخلية مضبوطة من خلال "صاحب السوق" الذي كان يحدد الموازين والماكييل وجودة المواد الغذائية ، ويضبط الأسعار ويحكم في منازعات البيع والشراء .

هـ) *الحكومة والجيش*

بالرغم من أن الحديث معقود بشكل خاص على الحكومة ، فإنه ليس بوسعنا الكلام عن "حكومة" ولا حتى كجهاز استشاري ، وأقل احتمالا من ذلك الحديث عنها باعتبارها جهازا مُفوّضا بمهام معينة . وينسب ابن حيان إلى عبد الرحمن الأوسط القيام بتنظيم الهيكل الإداري (مراتب الخطط) . وهذه كان لها فرعان أساسيان : ديوان البلاط وديوان جباية الضرائب ، وهما مزودان بـ "أهل الخدمة" المتخصصين . فكان الأول ، ديوان البلاط ، يعتمد على "كاتب/كتاب" متخصصين و"وزير/ وزراء" ؛ وينبغي ألا يطلق على صاحب أي من الخطتين "وزير" بالمعنى الحالي ولا بالمعنى المعروف في العصر الحديث . وكان الثاني ، ديوان جباية الضرائب ، مشكلا من "قهرمان/قهارمة" و"الأمناء" و"كتاب السجلات القانونيين" . لذلك كانت كل حسابات الضرائب العامة مقيدة في سجلات الحسابات التي كانت تضبط كل الأبواب المحددة . ونفس الشيء حدث مع "الخزانة العامة" (ديوان الخزانة) ، فكان التفتيش عليها موكلا لعدة أمناء ، وهؤلاء كانوا مسؤولين بشكل تضامني عن حسن سيرها . وكان يدير كل الفريق "حاجب" يرأس "المجلس" حيث كانت تدخل إليه الوثائق بعد ختمها بالخاتم الأميري . وطبقا لابن حيان كان لهؤلاء الموظفين الأميريين مرتب ثابت يمكن أن يصل إلى ثلاثمائة وخمسين دينارا شهريا ، وهو حقيقة مبلغ طائل . وأخيرا يرجع إلى هذا التاريخ إنشاء خطة "صاحب المدينة" التي تتوفر على سلطات بلدية أعلى بكثير مما لدى عُمد البلديات الحاليين ، فمهام صاحب المدينة كانت أقرب إلى منصب "المحافظ" الفرنسي أو إلى منصب "الحاكم المدني" الإسباني القديم .

وبالنسبة للجيش ، فبالرغم من احتفاظه بالنظام الذي وضعه عبد الرحمن الداخل واستمرار حصص "الجند" من الكور المجندة ، فقد تعزز الجيش الملكي المحترف بالمرتزقة الذين كان نواتهم الحرس الأميري (خمسة آلاف رجل من بينهم ثلاثة آلاف فارس) ، كما تميز نظام الجيش بالقدرة على إجراء حشد حقيقي . وأمّا الأسطول ، فإنه تعزّز ، بعد هجوم النورمان عام ٢٢٩ (=٨٤٤) ، بإنشاء دار صناعة أميرية للسفن في إشبيلية . وإذا صدقنا ما يذكره الأخباريون ، فإن الأسطول الأموي الذي نزل على شواطئ البليار في عام ٢٣٤ (=٨٤٨-٨٤٩) كان يعتمد على ثلاثمائة مركب .

و) الأشغال العامة

اكتسبت الأشغال العامة بُعدا هائلا كما تبينه المعلومات الخاصة بالإنشاءات التالية : دار صناعة إشبيلية (نحو عام ٢٢٩=٨٤٤) ، وقصبة ماردة ، وسور إشبيلية ، ومدينة مرسية ، ومسجد جيان (٢١٠=٨٢٥) ، ومسجد إشبيلية (٢١٤=٨٢٩) . وأما قرطبة ، وبسبب وضعها الخاص كعاصمة ، فقد كان النشاط التعميري فيها أكثر كثافة ممثلا في إعادة بناء الرصيف ومحجة الضفة اليمنى للوادي الكبير (٢١٢=٨٢٧) ، إعادة تشكيل القصر القديم (باب السدة) وبناء القصر الجديد ، جلب الماء من الجبل إلى القصر الجديد وإنشاء نبع ماء عمومي (٢٣٦=٨٥٠) ، بناء مساجد طروب وفجر والشفاء ، وتوسيع المسجد الجامع بقرطبة مرتين (٢١٨=٨٣٤) و(٢٣٤=٨٤٨) (في المرة الأولى كان التوسيع من الجانبين الشرقي والغربي ، وفي الثانية كان التوسيع في جنوب المسجد) ، وفي صحن المسجد تم تشييد ثلاثة أروقة عليا مزودة بمصلات من أجل النساء .

٨. الانفتاح التجاري والثقافي

ترجع المعلومات الأولي الموثوق بها بشأن العلاقات التجارية والثقافية للأندلس الإسلامية إلى القرن التاسع . فالجغرافي المشرقي ابن خرداذبه (توفي نحو عام ٢٧٢=٨٨٥) يشير إلى التجار اليهود الذي كانوا يتكلمون العربية واليونانية والعبرية واللغات الرومانثية الخاصة بالأندلس ولانغدوك (جنوب فرنسا) . وكانت البضائع الرئيسية هي العبيد والخصيان ، المصوغات والجواهر والأحجار الكريمة ، الحرير والأبسطة ، الجلود والتوابل ، وإلى غير ذلك . وحتى العداوة السياسية لم تمنع تجارة الأندلس مع العراق ، التي منها كانت تأتي الجواري والأسرى والموسيقيون والجواهر والأبسطة والنسيج فائق الجودة . ويذكر الأخباريون شراء عبد الرحمن الأوسط للعقد الشهير الذي كان لزبيدة زوجة هارون الرشيد ، وهي جوهرة ثمينة معروفة بالثعبان جاءت من نهب بغداد ، واقتناها الأمير القرطبي بعشرة آلاف دينار ذهبي . وكانت المحظوظة الموجهة إليها الجوهرة هي محظيته الشفاء ، أم ولده المطرف وأم رضاع ولده محمد ، أمير قرطبة المُقبل . ولكن الشفاء لم تحتكر وحدها عطف العاهل القرطبي ، إذ قد عرف بكثرة حريمه وحسنهن ، وكان يشترط فيهن الجمال والعذرية . فإلى جانب الشفاء يجب ذكر طروب ومؤمرة وفجر والمدينيات الثلاث . وبذكر هؤلاء الأخيرات نأتي على ذكر موضوع المظاهر الثقافية .

من الصعب رسم صورة للثقافة الأندلسية فيما بين الأعوام من ٩٢ إلى ٢٠٦ (=٧١١-٨٢١) ، فغاية ما يتحصل عليه المرء بهذا الشأن أسماء . وبالرغم من أن القدْر الذي كان قائما وساريا من الثقافة الهسبوقوطية لم يكن كثيرا ، فإنه كان أكثر استخداما مما ظن كثيرون ومما يقوله الأخباريون العرب . وتشير البيانات الثقافية الأولى إلى إنشاءات صرفة لأعمال منفعة عامة ، فتظهر أخبار عن أعمال جديدة منذ منتصف عهد عبد الرحمن الداخل . بيد أن إذا أخذ في الحسبان تعدد تكرار الأعمال الخاصة بالمسجد الجامع القرطبي ، فإن أي أهمية ثقافية لتلك الأعمال تكون مجرد تخمين فيما عدا البيانات الآثارية الصرفة ؛ فعلى سبيل المثال لا يمكن تقييم التوسيع الجانبي للمسجد الجامع دون شهادة ابن حيان ، كما لم يبق شيء من الرصافة . وأما بالنسبة للأدب والعلم والفكر ، فإن كتب التراجم تمدنا بأسماء ، قائمة أسماء فحسب .

وتتغير الصورة في القرن التاسع ، إذ يمدنا الأخباريون ببعض البيانات عن الموسيقى والشعر والحياة الاجتماعية خاصة فيما يتصل بالمدينيات الثلاث وبزرياب . و"المدينيات الثلاث" سمين هكذا ليس لأن أصلهن كان من المدينة ، بل بسبب أسلوبهن الموسيقي . كنّ يسمين فضل وعِلم وقلم ، وبحسب ما يقول الأخباريون ، كن حسناوات ومتميزات وأنيقات ، وهن فضلا على ترويحهن على الأمير بالموسيقى والجمال أعطينه أولادا . وإذا صدقنا ما يذكره ابن حيان ، فإن قلم كانت ابنة سيد بشكنسي ، استرقت خلال غارة ثم حملت إلى المشرق حيث تعلمت العربية والموسيقى والتهذب الاجتماعي . وأنشأت المدينيات الثلاث جوقة شرقية كان لها مقر خاص في القصر. ولكن مهما كان تأثيرهن فإنه ليس من المُكنة أن يتماثل مع التأثير الفريد للمغنى العراقي زرياب .

ولد أبو الحسن على بن نافع (١٧٣-٢٤٣=٧٨٩-٨٥٧) في العراق وكان مولى للخليفة العباسي المهدي ؛ وشهرته بزرياب (طائر أسود غَرِد) ترجع إلى سمرة بشرته وعذوبة صوته . وكان تلميذا للموسيقي والمغني البغدادي الشهير إسحاق الموصلي ؛ وطبقا لما يُروى أن الأداء الباهر لزرياب أمام الخليفة هارون الرشيد حرك حسد الموصلي ، وخوفا على حياته لجأ زرياب إلى الغرب ، وأقام مدة قصيرة بالقيروان في بلاط زيادة الله الأول الأغلبي ؛ وهنالك تعرف عليه الموسيقي اليهودي الأندلسي أبو النصر منصور الذي أوصى به الأمير الأندلسي الحكم . ولما جاء زرياب إلى الأندلس كان الأمير قد توفي ؛ ولكن ولده وخلفه عبد الرحمن الأوسط احتفظ به ، وفضلا عن ذلك زاد على العرض المقدم له من أبيه ، فمنحه ضياعا وفرض له عطاء قدره مائتا دينار في الشهر. وكانت موسيقى زرياب شرقية أساسا وتأتي من البناء اللحني والنغمي لأستاذه الموصلي .

ومن الصعب القيام بتحليل نقدي للأنماط الاجتماعية المفترضة التي أدخلها زرياب إلى الأندلس ، فهي كانت الأنماط البغدادية الشائعة . ولكن إذا لم تنفر قرطبة من التنظيم الإداري القادم من بغداد ، فإنه كذلك لا يوجد سبب للظن بأن البلاط الأموى القرطبي سيكون أكثر تحرجا في اتخاذ الأنماط الاجتماعية البغدادية ، وهذا بالطبع طالما اقتصرنا القول بشان استخدامها على الطبقة الأرستقراطية الأميرية . فكان أعضاء الطبقة الحاكمة المذكورة يستخدمون للباس أنسجة رقيقة بيضاء في الصيف ومعاطف جلدية ومبطنة بالفرو وبالقطن في الشتاء ؛ وفي الربيع كان دارجا استخدام العباءات الواسعة من الحرير أو من أنسجة أخرى رقيقة ذات ألوان زاهية . وكان الرجال يقصرون شعورهم من الجانبين ويرسلونه مجعدا إلى الوراء ، مظهرين الحاجبين والقذال والأذنين ؛ وكان يستخدم الخضاب ونتف الشعر، وكذلك المضمضة للفم . ومائدة باكر العصر الوسيط الهسباني ، والتي كانت تقدم فيها الأطعمة دون ترتيب وتنسيق ، استبدل بها نظام مائدة ليس ببعيد عن الذي ما يزال مستخدما في المآدب الجيدة ، فأولا يقدم الحساء ، وبعد ذلك صنفان أو أكثر من اللحم مُطيّب بالتوابل ، وبالمثل تعدّ أطباق الحلوى حسب الوصفات التقليدية المعمولة على أساس العسل واللوز والجوز ، أو مُعجَّنات الفاكهة بالقرفة والونلة والمزينة بالفستق واللوز. وكانت مفارش المائدة بالقصر وفي البيوت العليا من الجلد الرقيق ، وتقدم الأشربة في أوان من البلور.

وإذا كان ينبغي تضييق الاستخدامات الاجتماعية السابقة في الحياة الاجتماعية ، فكذلك يجب أن نكون حذرين كل الحذر مع الأخبار الخاصة بالكتب والأدباء والمفكرين . فطبقا للأخباريين أرسلت بعثة إلى العراق لإحضار كتب من المشرق خلال حكم الأمير الحكم ، واستقبل عبد الرحمن الأوسط في بلاطه العديد من الفلكيين والفلاسفة والأدباء والشعراء . وإن كان ذلك كذلك ، فقد تركوا آثارا قليلة ؛ فالمعطيات المؤكدة هي ما يلي : عبد الله بن الشمِر، مولى للأموي الشامي إبراهيم بن سليمان ، كان ناظم شعر مقبول وكتب قصائد ذات طابع ديني ؛ والفيلسوف المسمى عثمان بن المثنى كان نحويا ، ولا يُظهر أي شيء يجعله مستحقا للقب مفكر، وشهرته تأتي من كونه مؤدبا لأبناء الأمير؛ وسعيد بن فرج الرشاش كان لغويا متوسط الدرجة ؛ وأخوه محمد كان معروفا بنسبة الذراع الرشاشي إليه ؛ وشاعر البلاط عبد الله بن بكر المعروف بالندل كان كذلك فحسب . وبالعكس كان عباس بن فرناس ، وهو مولى أموي من أصل بربري من أسرة بإقليم تاكرنا ، شخصية ثقافية بارزة ؛ فقد كان فلكيا منجما ، ولغويا ، وهاويا للفيزياء مخترعا ؛ وإذا صدقنا ما يقال ، كان رائدا للطيران من خلال استخدام حلة مغطاة بريش من الحرير وجناحين متحركين ، وعلى هذا النحو ألقى بنفسه من أعلى الرصافة ونجح في التحليق .

وأخيرا يحيى بن حكم البكري ، أحد المرسلين كسفير إلى بيزنطة ، عُرف بأنه عربي من جيان ، واشتهر بالغزال لحسنه ، وكان شاعرا هجائيا ومرتجلا حادا عبقريا . والبقية ، والمفكرون على الخصوص ، لم يتعدوا كونهم رحّالة يأتون أو يذهبون إلى المشرق ويجلبون أو يعودون بكتب ، وأفكار نظن أنها معتزلية على نحو ما ، وروحانيات .

وكما سيذكر لاحقا توغل الفكر الإسلامي في الأندلس من خلال صلات أربع وهي عقائد المعتزلة ، والفرق الباطنية ، والعلوم ، والعقائد الروحانية . ففي أوائل القرن الثالث الهجري (= التاسع الميلادي) رحل الطبيب القرطبي أبو بكر فرج بن سلام إلى المشرق وتعرّف في البصرة على المعتزلي الشهير أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وعند عودته أدخل كتبه وعقائده ولقّن عدة تلامذة له مذهب المعتزلة . وتقريبا في نفس الوقت وصل إلى الأندلس أديب بغدادي ، نصف جاسوس ونصف داعية ، يسمى أبو جعفر أحمد بن محمد هارون ، وكان ذا اتجاه معتزلي عام . وعلى ما يبدو كان أحمد بن عبد الله الحبيبي ، وهو تقريبا تلميذ للمذكوريْن السابقين ، يُدرّس أفكار الجاحظ . وصدى ذلك التيار ، مثل تيارات الفرق الباطنية والعقائد الروحانية والدعاة المشارقة أو التيارات ذات المحتوى الأيديولوجي المتضمن في الكتب العلمية ، لن يكون له أهمية معتبرة أو قيمة خاصة حتى الجيلين التاليين في أيام الفتنة الأولى وفي عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر.

٩. الأندلس تظهر للعالم

الوضع الجغرافي الطرفي للأندلس بالنسبة إلى العالم الإسلامي ، وعزلة شبه جزيرة إيبريا النسبي ، والمشاكل الداخلية الصعبة ، كل ذلك جعل من السياسة الأندلسية انعزالية بشكل بارز فيما عدا حادثة رُنسفالة ، التي كانت مشهورة في الخارج أكثر منها في الأندلس . فإخضاع ميول التمرد على السلطة المركزية ممثلة في ثورات سعد بن الحسين الأنصاري في طرطوشة (١٧٢=٧٨٨-٧٨٩) ومطروح بن سليمان بن يقظان الأعرابي في سرقسطة وبربر تاكرنا (١٧٨ =٧٩٤-٧٩٥) في أيام الأمير هشام بعد أن حل النزاع العائلي مع أخويه سليمان وعبد الله ، كل ذلك قد استنفد تقريبا مدة حكم الأمير الأموي الثاني . وما كان لخلفه الأمير الحكم رويحة كبيرة ، إذ كان عليه أن يخضع ثورتي عميه سليمان وعبد الله والانتقاضات في ثغري طليطلة وسرقسطة ؛ وقام القائد عمروس بإيقاف بنى قسي عند حدهم في الثغر الأعلى ، وعاقب الطليطليين بقسوة في واقعة الحُفرة في عام ١٨١ (=٧٩٧) ؛ ولكن حتى قرطبة لم تسلم من التآمر والتمرد ، فتم إعدام اثنين وسبعين من وجهائها منهم اثنان من الأمراء الأمويين في عام ١٨٩

(=٨٠٥) ، كما نُفـي الباقون على الحياة من ثورة الربض التي قامت في عام ٢٠٢ (=٨١٨) .

أ) *الصدام مع الفرنجة*

مثل حادثة رُنسفالة أجبرت محاولات الأسرة الكارولونجية للتوسع الأمراء الأمويين على النظر إلى الخارج . ففي عام ١٨٥ (=٨٠١) فتحت قوات لذويق (لويس المعروف بالورع Louis le Pieux) برشلونة بعد سنتين من الحصار. وبعد استقرار الإفرنج فيما ستعرف بمدينة قطالونيا Catalunya vella حاولوا إحياء مشروع إقامة ثغر هسباني يكون نهر الإبرُه بمثابة حدّ له ؛ وتتيح بيانات ***المقتبس*** لابن حيان الموجزة إيضاح هذه المسألة بتأكيدها رواية المصادر اللاتينية . ومن الجائز أن المحرضين على الحملة الفرنجية كانوا الأعداء الطبيعيين للعاهل الأموي ، أي عبد الله بن عبد الرحمن عمّ الأمير الحكم ، والثائر بسرقسطة بهلول بن مرزوق ، وملك أشتوريَش أذفونش (ألفونصو الثاني) ، الفاتح الحقيقي لجليقية . فقد أرجأ درس سرقسطة ورُنسفالة العملية العسكرية الفرنجية حتى عام ١٨٢ (=٧٩٨) وهو التاريخ الذي وقع فيه احتلال أعلى لوبريغات دون مقاومة . وفي عام ١٨٣ (=٧٩٩) امتدت غارات الإفرنج إلى مناطق شمال لاردة ووشقة ، وطالت الطلائع الفرنجية برشلونة . بيد أن حاكمها سعدون الرعيني (زادو Zado في المصادر اللاتينية) ، الذي كان قد وعد في العام السابق (١٨٢=٧٩٨) في أقيسغران Aquisgrán بتسليم المدينة لأول فرقة إفرنجية تصل إليها ، قاوم بصلابة قصوى وطلب تعزيزات من قرطبة لم ترسلها أبدا إليه . وتعزز الجيش الإفرنجي بقوات من أكوتين وبورغنديا وغشقونية وبروڤانس ، كما حضر إلى ميدان المعركة لذويق التقي نفسه الذي تلقى استسلام المدينة .

ومن الجائز أن غرض هذه الحملة كان الوصول إلى ضفة الإبرُه ؛ ومع أن بيانات الحوليات اللاتينية متناقضة بعض الشيء بهذا الشأن ، فإن المؤرخين العرب يذكرون هجومين على طرطوشة ، أحدهما في عام ١٩٢ (=٨٠٨) والآخر في عام ١٩٣ (=٨٠٩) كانت نتيجتهما بلا طائل ، مثلما كانت أيضا نتيجة الرد الإسلامي بالهجوم على برشلونة عام ١٩٩ (=٨١٥) . وعلى هذا النحو أصبح الثغر الهسباني مؤمنا ولكن محدودا بخط لوبريغات- قاردونر Llobergat-Cardoner ، وبالتالي فقد كثيرا من خطورته ببقاء كل خط الإبرُه في أيدي المسلمين . وعلى أي الأحوال فقد حاول عبد الرحمن الأوسط استعادة برشلونة عدة مرات ولكن دون جدوى ، وكانت أولى المحاولات الحملة التي قادها القائد أبو مروان عبيد الله بن عبد الله البلنسي في عام ٢١٢ (=٨٢٨) ، وبعد ذلك حملة عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني في عام ٢٢٦

(=٨٤١) التي وصلت حتى مشارف أربونة ، وأخيرا حملة عام ٢٣٦ (=٨٥٠) .

ب) *الغزو النورماندي*

يُعدّ الغزو النورماندي بمثابة الهجوم الخارجي الأعظم خطرا ، ونعلم خبره بتفصيل حقيقي بفضل نتف مجتزئة من تاريخ أحمد الرازي وتاريخ ابنه عيسى بن أحمد الرازي حفظها لنا ابن حيان . ففي غرة ذي الحجة من عام ٢٢٩ (=٢٠ أغسطس ٨٤٤) توغل أربعة وخمسون مركبا نورمانديا وعدد مماثل من السفن الأقل حجما في مصب نهر التاجُه . وهاجم النورمانديون ("المجوس" أو "الأردمانيون") أشبونة (لشبونة) ؛ وبعد ثلاثة عشر يوما من القتال عادوا إلى البحر ، وهو ما أعطى وقتا لوالي المدينة وهب الله بن حزم لتنبيه الأمير عبد الرحمن الأوسط . ووصل النورمان إلى مصب الوادي الكبير؛ ونزل فريق منهم بالقرب من شذونة وتوغل واحتل ميناء قادش ؛ وصعد الباقون مع نهر الوادي الكبير حتى الشرف Aljarafe ونزلوا في قورية دِل الريو Coria del Río حيث قتلوا سكانها في ١٣ من المحرم من عام ٢٣٠ (=٣٠ سبتمبر ٨٤٤) . وبعد ثلاثة أيام وصلوا إلى إشبيلية حيث نهبوها خلال سبعة أيام وقتلوا الذكور القليلين الذين وجدوهم وسبوا النساء والأطفال . وحيث أن غاطس سفنهم لم يسمح لهم بالصعود في النهر حتى قرطبة فقد حاولوا استغلال انتصارهم المبدئي بالقيام بحملات برية مزودة بالخيل التي غنموها من المسلمين .

ويشهد الهجوم المعاكس الذي قام به عبد الرحمن الأوسط على تماسك دولته ؛ فقد حرّك قوات الثغور والولايات الجنوبية التي حطت على إشبيلية تحت قيادة عبد الله بن كُلَيْب وعبد الواحد الإسكندراني ومحمد بن رستم ، واحتلت شمال ووسط الشرف . ووقعت المعركة الرئيسية في طبلاطة Tablada في ٢٥ صفر من عام ٢٣٠ (=١١ نوفمبر ٨٤٤) . وارتكب النورمانديون ، الواثقون بأنفسهم لما أحرزوه من انتصارات في ضرباتهم السابقة ، ارتكبوا خطأ ترك مراكبهم والقتال في البر ، فمات منهم ألفان في المعركة وأسر حوالي أربعمائة قتلوا على مرأى من إخوانهم الذين كانوا قد نجحوا في الصعود إلى السفن ثم هربوا باتجاه جنوب النهر ، وتركوا خلفهم ثلاثين سفينة أحرقها المسلمون . ونجت إشبيلية وُأمر ببناء سورها ؛ وعلمت الأندلس كلها بالنصر ، وكذلكُ أعلِم به أمراء العدوة المغربية ، وإمام تاهرت الخارجي أفلح بن رستم ؛ وأعلن الخصي نصر والقائد محمد بن رستم كمخلصيْن للشعب . وجرّب الأسطول النورماندي حظه مرة أخرى بالإغارة على لبلة وباجة وأشبونة ، ولكن دون جدوى . وخوفا منهم من رد الفعل الأندلسي أغار النورمانديون في العام التالي (٢٣١=٨٤٥) على أصيلا بشمال

غرب المغرب بعدد قليل من السفن ، ونهبوا منطقة بوردو الفرنسية بالجزء الأعظم من الأسطول[١٠] . وبعد هزيمة طبلاطة نجح عدد ضئيل من الهاربين النورمانديين ، كانوا مستترين في المستنقعات ، في إنقاذ حياتهم باعتناقهم الإسلام ، وفيما بعد اشتغلوا بالرعي وبصناعة الألبان . ولاحقا تمّ بسهولة صد الهجومين النورمانديين التاليين في ٢٤٥ (=٨٥٩) و ٣٥٥ (=٩٦٦) .

ج) *العلاقات مع نصارى الشمال : مشكلة جليقية*

برهن رد الفعل الأندلسي على الهجوم الفرنجي وعلى نزول النورمانديين على فعالية تنظيم البناء الاجتماعي للدولة الأموية . وكان الملوك النصرانيون محصورين في حدودهم ، فيما عدا استثنائين كلفا الإسلام الأندلسي كثيرا فيما بعد ، وهما جليقية وقشتالة . فقد هزم الأمير هشام بِرْمُنْد (برمودو الأول Bermudo I) في عام ١٧٥ (=٧٩١) في منطقة ألبة ، ألبا الحالية Álava ، وفي القلاع ، شمال برغش Burgos ، ومرة أخرى في عام ١٧٦ (=٧٩٢) في ألبة . وفي عام ١٧٨ (=٧٩٤) وصلت الصائفة إلى أوفييدو Oviedo حيث نهبت المدينة ، ولكن عند عودتها تعرض الجيش الإسلامي للهزيمة . وفي العام التالي ، ١٧٨ (=٧٩٥) ، بلغت الصائفة أسترقة وتوغلت في أشتوريَش وتقريبا كادت أن تأسر الملك النصراني أذفونش (ألفونصو الثاني) . وفي عام ١٨٠ (=٧٩٦) جال الأمير الحكم في القلاع ، قشتالة القديمة ، طبقا لابن حيان ، ووصل إلى سواحل كنتبرية . ومع ذلك فإن حملات الأعوام ١٨٥ (=٨٠١) ، و١٨٧ (=٨٠٣) ، و١٩٢ (=٨٠٨) لم تلق نجاحا أو كانت فشلا حقيقيا .

وأعطى الخطأ الأندلسي بعدم تعمير منطقة جليقية وليون نتائجه ؛ فقد استقر أذفونش (ألفونصو الثاني) ، الملقب بالعفيف ، استقرارا وثيقا في لُك واكتشف قبر ياقب (يعقوب) الحواري ، قديس كومبوستيلا Santiago de Compostela ، مؤسسا على هذا النحو قاعدة إعادة تعمير جليقية وأشتورقة وليون ، وواضعا أساس عقيدة القديس سانتياغو بإسبانيا ، وهما نتيجتان اجتماعيتان قاطعتان للغاية وإيجابيتان لنشأة الممالك المسيحية اللاتينية ، وسلبيتان للأندلس الإسلامية العربية . وكان تطور مدينة ليون من الأهمية بمكان حتى أنها في عام ٢٣١ (=٨٤٦) ، في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، تعرضت للحصار من قبل ابنه الأمير محمد بن عبد الرحمن ، واستخدمت قواته آلات الحصار ودمرت الأسوار.

---

[١٠] يجدر بنا الإشارة إلى أن هذه الجملة وسابقتها من النص الإسباني فيه تخليط واضح في سياق الوقائع التاريخية ، وهذا استلزم منا تصويبهما اعتمادا على المصادر والمراجع المعتمدة (م*) .

د) *المكان الذي ظهرت فيه قشتالة*

وحدث شيء مشابه باتجاه أكثر نحو الشرق حيث يقع إقليم قشتالة ، إذ كان هذا الإقليم يمثل الجانب الآخر من الحدود الذي عولج متأخرا وبشكل سيء . فقد حاول عبد الرحمن الأوسط إغلاقه ولكنه واصل الطريقة التقليدية لأسلافه ، وهي تجريد الصوائف سنويا تقريبا ، وبعضها كان مهما جدا مثل صائفة عام ٢٠٠ (= ٨١٦) التي احتلت فج بانكوربو Pancorbo ، وصائفة ٢٠٨ (=٨٢٣) ، وصائفة ٢١٠ (=٨٢٥) التي انتصر فيها الأندلسيون في معركة جبل المجوس ، لعله يعنى بالمجوس البشكنس . وتبرهن الصوائف الأخرى اللاحقة : ٢١١ (=٨٢٦) ، و٢٢٣ (=٨٣٨) (مهمة جدا) ، و٢٣٥ (=٨٤٩) ، تبرهن على خطورة المشكلة ، خاصة إنها وقعت في الجانب الشرقي حيث ذكر البشكنس .

وارتبطت ولادة أرض قشتالة بمصير مشكلة . من جانب ، ما يمثله اسمها ، فابن حيان يسميها "القلاع" ، أي los castillos ، وفي نصوص أخرى "قشتالة" بسبب اسم مكان محتمل أصله بإفريقية[١١] . ومن جانب آخر، كونها ستمثل فيما بعد مشكلا صعبا بين مملكتى ليون ونبرّة ، ولاحقا لسلامة وبقاء مملكة ليون ؛ ولكنها منذ نشأتها كانت مشكلة للأندلس .

هـ) *البشكنِس*

يُطلق الأخباريون العرب اسم "البشكِنس" على سكان منطقة شمال الإبرُه التي تشمل جزءا من المحافظتين الحاليتين : بسكايا Vizcaya وألبا ، وتقريبا كل غيبوثكوا Guipúzcoa والجزء الغربي من نبرّة وشمالها . وخرج الموقع الحصين الأساسي المذكور، بنبلونة ، من السيطرة الأندلسية ، التي لم تكن أبدا فعالة ، في عام ١٨٢ (=٧٩٨) . وخلال عهد الأمير الحكم تصاهر المولدي موسى بن فرتون بن قسي مع وَنَقُهْ بن شانْجُهْ (إينيغو أريستا Íñigo Arista) ، ومن الجدير أن تؤخذ بعين الاعتبار سياسة بني فرتون الماهرة ، وكشفت المصاهرة أن الزعيم البشكنسي كان يمارس سلطة فعلية . ولا تسمح نصوص ابن حيان بالشك في أهمية غرسيه بن ونقه (غرثيا إينيغيث García Iñíguez) وقومه البشكنس ، وهي الأهمية التي تنامت بموقف المولدي المعروف موسى بن موسى بن قسي ؛ فمغامرات هذا الأخير لم تكن ممكنة دون تأمين جانبه الشمالي المحمي من قبل أصهاره الملوك البشكنس ، وأقل بكثير كان نجاحه في عام ٢٢٧ (=٨٤٢) أمام القائد الأموي حارث بن بزيع وإن كان هذا القائد قد وقع أسيرا في يد موسى

[١١] يقصد قصطيلية في منطقة بلاد الجريد بتونس (م*) .

. وجرد الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط ثلاث حملات في أعوام ٢٢٧ (=٨٤٢) و٢٢٨ (=٨٤٣) و٢٢٩ (=٨٤٤) على موسى وفي الطريق ضد البشكنس ، ولكن الفعل الذي ينبغي التأكيد عليه هو الضغط الذي مارسه البشكنس أوالنفاريون على منطقة القلاع منذ الثلث الثاني من القرن التاسع الميلادي .

و) *الاعتراف الدولي*

كان الاعتراف الدولي الواسع بالدولة الأموية الأندلسية إحدى النتائج السياسية للتنظيم الإداري الذي قام به عبد الرحمن الأوسط . فلم تعد الأندلس مجرد ولاية متمردة ، واعتبرت مُلكا مماثلا للدولة العباسية في المشرق ، وهذه راحت تتقلص باطراد لتقتصر سلطتها الفعلية على العراق ، ففي عام ٢٠٧ (=٨٢٢) فقدت ولاية خراسان[١٢] ، وبعد عدة سنوات استقل أحمد بن طولون بمصر ؛ وكذلك لم تقبل إفريقية والمغرب السيادة العباسية ، ففي إفريقية أسس إبراهيم بن الأغلب الأسرة الحاكمة التي حملت اسمه ، وفتح شريف قرشي ، إدريس ، الطريق لاستقلال المغرب الفعلي . وبين هذا وذاك أسس الخارجي عبد الرحمن بن رستم إمارة مستقلة في تاهرت (تيهرت الحالية في وسط الجزائر) .

وبالطبع من الصعوبة البالغة وضع صورة حقيقية للعلاقات السياسية الدولية القرطبية ؛ ولكن سواء بالقراءة النقدية للروايات أو بصمت الأخباريين يمكن الافتراض بأنه مع الأغالبة كانت توجد علاقة عدائية بشكل رسمي ولكنها صامتة على وجه حقيقي ؛ وبالعكس كانت العلاقة مع الإدريسيين أكثر تضاربا . ولكن في مقابل كل ما هو صمت بالنسبة لإفريقية والمغرب توجد أخبار بشأن العلاقة بإمارة الرستميين بتاهرت . فقد أرسل الإمام عبد الوهاب بن رستم في عام ٢٠٧ (=٨٢٢) إلى قرطبة سفارة كانت تضم ثلاثة من أبنائه ؛ كما أعلم الأمير القرطبي في ٢٣٠ (=٨٤٤) تاهرت بالانتصار على النورمانديين ، وامتدت هذه العلاقات حتى أواخر القرن الثالث الهجري (= التاسع الميلادي) . ومن أجل تقييم تلك العلاقات ينبغي تذكر أنه لم يكن يوجد خلاف ديني مع الأغالبة والإدريسيين ، في حين وجد مع الرستميين ، إذ كانوا خوارج ، وهي فرقة ممقوتة بقدر بالغ للأمويين ومخيفة لهم . ويُذكر بهذا الصدد أن حرس عبد الرحمن الناصر قتلوا مجنونا مسكينا كان قد أفزع حصان الخليفة لأنهم ظنوا أنه خارجي متعصب . ولذلك كانت

---

[١٢] يشير المؤلف إلى الدولة الطاهرية التي ظفرت بشبه استقلال عن سلطة بغداد ، وكان ابتدا ذلك بتولية الخليفة المأمون قائده عبد الله بن طاهر حكم خراسان في عام ٢٠٥ (=٨٢٠) ، وظلت الدولة قائمة حتى عام ٢٥٩ (=٨٧٢) . والتاريخ الذي أثبته المؤلف أعلاه هو العام الذي خلف فيه طلحة أباه عبد الله بن طاهر في حكم الدولة الطاهرية (م*) .

السياسة الدولية للأمويين القرطبيين واقعية ؛ وإن كان في أيام عبد الرحمن الأوسط يبدو أنه لم يوجد اهتمام ببرغواطة أو ببني مدرار بسجلماسة ، إذ أن العلاقات الموثقة معهم ترجع إلى مدة حكم الأمير محمد بن عبد الرحمن . وبشأن أمراء نكور، بالقرب من أجدير، فقد كان يوجد شكل من أشكال الحماية الأندلسية عليهم ، فقد أنقذ الأمير محمد بن عبد الرحمن نساء بيت نكور الحاكم حينما قام النورمانديون بسبيهن .

وترجع الاتصالات مع بيزنطة إلى سفارة عام ٢٢٥ (=٨٤٠) . فأمام الضغط العباسي لجأ البيزنطيون إلى الأمويين القرطبيين حسب المبدأ القائل بأن أعداء أعدائك هم أصدقاؤك . ويقدم لنا ابن حيان رواية جيدة عن العلاقات ونسخة جائزة قريبة جدا من الرد الأموي . والبيانات المهمة هي : الإعلان الصريح بالسفارة عن بدء العلاقات الدبلوماسية ، واقتراح معاهدة صداقة بين الطرفين ، وطلب انسحاب أتباع أبي حفص البلوطي الأندلسيين من كريت ، وإرسال هدايا . ويمثل نص الرد القرطبي وثيقة مفعمة بالمجاملات السياسية ، وهي سمة المناسبة ، إلا فيما يتصل بالأندلسيين الداخلين إلى كريت ، فبشأنهم قد أجيب بأنهم كانوا متمردين ؛ وأما بخصوص العباسيين فإنه يُرد بالإحالة إلى مشيئة الله . ولكن ، وبشكل خاص ، حاول عبد الرحمن الأوسط أن يعود قرَطيوس ، سفير الإمبراطور توْفلِس (تيوفيلوس أو تيوفيل Theophilus) ، إلى بيزنطة مصحوبا بمعبوثين أندلسيين هما : يحيى الغزال ويحيى صاحب المنيقلة .